دكتور محمد على أحمد

الزراعة.. أيام الفراعنة



إن الذيـن عنـوا بإنشـاء هـذه السلسـلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين



سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٥٥]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : **شريفة أبو سيف**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع .

الإهداء

أهدى كتابى هذا إلى امرأتين . .

الأولى . . منحتنى حياتى . .

والثانية . . منحتنى حياتها . .

لهما عميق حبى ،،

أ . د . محمد على أحمد

مُقَدِّمَة

طالعتنا وسائل الإعلام المختلفة باحتفال العالم بالألفية الثالثة، وذلك على أساس أن التأريخ بدأ مع مولد السيد المسيح عليه السلام، ولكن هذا التأريخ يختلف بالنسبة لنا نحن أحفاد الفراعنة. فلقد بدأ عصر الأسرة الأولى منذ نحو ٣١٠٠ سنة قبل الميلاد، حينما وحد الملك مينا الوجهين القبلي والبحرى، وهكذا.. فإن تاريخنا المصرى القديم يوغل فى التاريخ لآلاف أخرى من السنين لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

ويعتقد أن نشوء المجتمع المصرى البدائى كان منذ نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، حينما نشأت حكومة مركزية قوية تضم عدة ملايين من البشر، وعلى ذلك فنحن المصريين نستقبل الألفية السابعة من تاريخنا الحافل التليد، تاركين باقى العالم يحتفل بألفيته الثالثة.. وهذا يجعلنا نباهى الأمم الأخرى بتاريخنا، متذكرين قولنا الشعبى المألوف بأن «مصر أم الدنيا».. وإن كانت هذه الأيام قد انتابتها بعض الشيخوخة، إلا أن عزيمة أبنائها قادرة على أن تعيد إليها شبابها المفقود.

ولكن ما هى العوامل التى جعلت مصر مهدًا لحضارة إنسانية مبكرة؟..

وكيف استطاع المصريون القدماء أن يتحولوا من الحياة البدائية، والتقاط الغذاء، والركض خلف الحيوانات لقنصها، إلى شعب آمن مستقر يبنى حضارة عظيمة فى الوقت الذى كانت فيه الشعوب الأخرى تعيش بدائية متخلفة ؟

إن السر فى ذلك يكمن فى اهتداء ذلك الإنسان المصرى القديم إلى حرفة الزراعة.. فلقد أكتشف هذا الإنسان الذكى أنه يمكنه محاكاة الطبيعة، ويقوم بزراعة النباتات التى يرغبها بنفسه، فاستقر على ضفتى نهر النيل، وابتكر وسائل وطرق غير مألوفة لم يسبقها إليه أحد.

ولقد اجتهد الفلاح المصرى القديم فى العناية بمحاصيله، وعلى رأسها القمح والشعير، حتى يمكن القول إن الحضارة المصرية القديمة أسست أركانها على دعائم وفرة إنتاج القمح بما يكفى احتياجاتها، وتصدير الفائض إلى الدول الأخرى المجاورة، وكان ذلك شأن الحضارات الأخرى القديمة مثل حضارة شعب المايا فى أمريكا الوسطى التى اعتمدت على وفرة إنتاج الذرة الشامية، وحضارة الصين التى اعتمدت على إنتاجها الوفير من الأرز.

وتدل نقوش جدران المعابد الفرعونية القديمة، وحوائط مقابرهم، وبردياتهم عن ذلك الحب الكبير الذى ملأ قلب الفلاح المصرى القديم لبلاده ولأرضه ولحرفة الزراعة التى كان يعشقها، حتى أن تلك النقوش والكتابات القديمة حملت لنا الكثير من مناظر الحياة الزراعية، وأنواع النباتات والحيوانات والطيور التى اهتم بها.

إن فلاحنا المصرى القديم سبق العالم باكتشافه الزراعة، فغير وجه التاريخ، وزرع حضارة عظيمة.. جنى من ورائها مجدًا خالدًا.

أ. د. محمد على أحمد

١ مصر .. هبة النيل

كيف كانت تبدو مصر منذ مليون سنة مضت ؟

لقد كانت مصر – وشمال أفريقيا كله – إقليمًا غزير الأمطار، وفير النباتات، تمرح فيه الحيوانات البرية. وكان الإنسان المصرى البدائى يعيش حياة حرة، يجمع الثمار، ويصيد الحيوانات، شأنه فى ذلك شأن غيره فى المجتمعات البدائية الأخرى التى كان يعيش فيها الإنسان الحجرى فى ذلك العهد الموغل فى القدم.

وفى منتصف ذلك العصر، بدأت الأمطار فى الانحسار، وحل الجفاف العظيم على منطقة شمال أفريقيا، فحوّل هضبتها الجيرية إلى بيداء شاسعة، دفعت الإنسان المصرى القديم إلى اللجوء لشاطئ النهر، حيث وجد فى وادى النيل مكانًا مناسبًا لاستمرار حياته الأولى التى ألفها، واستوطن هو وعشيرته ذلك المكان، بينما أقام الجفاف حوله سدًا منيعًا من صحراء مترامية الأطراف، فانعزل الإنسان المصرى القديم فى موقعه، وارتبطت حياته بنهر النيل.

وكان من أثر الجفاف أن أصبح القوت شحيحًا، اللّهم إلا فى المناطق الواقعة مباشرة على حافة النهر، لذا اضطرت الحيوانات – وكذلك

الإنسان – إلى ترك الأجزاء العلوية من الهضبة، والنزول إلى شاطئ النهر طلبًا للغذاء الذى وجدوه ميسورًا بين النباتات البرية.

وأدى تجمع أفراد الإنسان المصرى القديم إلى تعارفهم، وتجمعهم. ووجد هؤلاء أنه من الأنفع لهم الاحتفاظ ببعض الحيوانات البرية على مقربة منهم لتيسير الحصول على طعام فى المستقبل، وكذلك وجدوا أنه يمكنهم استغلال بعض أنواع النباتات البرية فى إنتاج كميات وفيرة من الطعام لهم، ولعشيرتهم، وكذلك لإطعام حيواناتهم.

ولا يمكن لنا أن نتصور أن الإنسان المصرى القديم قد قفز فجأة من حياته البدائية التى كان يلتقط فيها طعامه، إلى منتج له، ولكن هذا التحول كان بطيئًا ومتدرجًا، واستغرق دهورًا طويلة، ولكنه كان عاملاً حاسمًا للتطور، ولنشأة وحدة اجتماعية تعتمد على الحياة الإنسانية والتعاون بين أفراد العائلة أو القبيلة.

ولقد ساد خلال هذه الفترة من حياة الإنسان المصرى القديم هدوءًا مناخيًا لم يتوفر لغيره فى المناطق الأخرى من العالم، فلا صقيع يجمد الأطراف، ولا زمهرير البرد القارص، ولا أمطارًا كاسحة، ولا فيضانات جليدية مدمرة.

وهكذا.. فإن وادى النيل الضيق الذى يمتد من الجنوب إلى الشمال لمسافة نحو ألف وخمسمائة كيلومتر، كان موقعًا منعزلاً ومحميًا، مما هيأ للإنسان المصرى القديم فرصة نادرة للتطور، فاستقر فيه، وإستأنس الموارد

البرية من نباتات وحيوانات حتى يضمن لنفسه وعشيرته ما يحتاجون إليه من مأكل وملبس ومسكن.. وحينذاك ولدت مجتمعات محلية تتحكم فى جميع الموارد اللازمة لاستمرار الحياة.

ولقد تركزت الزراعة والحياة على ضفتى نهر النيل وفى الدلتا، معتمدة على مياه النيل والطمى (الغرين) الذى يفيض به أربعة شهور من كل عام، فيخصب تربة الوادى السوداء التى تعتبر - بحق - أخصب أراضى العالم على وجه الإطلاق.

وبعد انتهاء موسم الفيضان، ينكمش مجرى النيل إلى سابق عهده، تاركًا مجموعة من المستنقعات على حافة الصحراء، بينما خلفت مياهه الجزء الأعظم من الطمى على السهل المجاور للنهر. وكانت هذه المستنقعات عامرة بالنباتات المائية - خاصة نبات البردى - مكونة غابة مائية تأوى إليها الطيور والحيوانات البرية.

ولم تكن الدلتا - فى ذلك الوقت - قد تكونت على النحو الذى نعرفه الآن، ولكنها كانت خليجًا بحريًا واسعًا يمتد من البحر المتوسط لعمق يصل إلى نحو عشرة آلاف كيلومتر، حيث كانت مياه البحر المالحة تغطى مساحات شاسعة تصل إلى موقع مدينة إسنا الحالى، حتى أننا كثيرًا ما نجد أصدافًا بحرية فى المناطق الواقعة فى مصر الوسطى حتى أسيوط.

وفى نهاية العصر الحجرى القديم تراجعت مياه البحر نظرًا لانخفاض مستواها، وكذلك لترسيبات الطمى التى كانت تحملها مياه النهر من الحبشة، ثم أخذ وادى النيل والدلتا شكلهما الحالى.

وصارت المناطق التى على حدود مصر أرضًا حمراء (صحراء) فى العصر الحجرى الحديث، وأصبح خط الميـــاه الوحيد (نهر النيل) وشاطئيه مـن التربة الخصبة الســوداء موطنًا للإنســان المصرى القديم، فمارس الزراعــة التى ابتكـر وسـائلها، وكـان ذلـك فـى بدايـة تكويـن الحضـارة المصريـة القديمة، منذ نحو خمسة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

ولم يكن وادى النيل مقرًا لإقامة الإنسان المصرى القديم فحســب، بـل اعتقد هذا الإنسان أن النيل هو مركز الكون، وأن منبعه هو بداية العـالم، وأن موقع هذا المنبع هو عند دخول النيل الحدود المصريـة الجنوبيـة بـين جزيرة فيلة وجزيرة أسوان.

ولقد وُجدت نقوشٌ على جدران معبد فيله تمثل منـابع النيـل، تصـور الإله أوزيريس Osiris على هيئة إلــه النيـل حـابى Hapy، الذى تفيـض مياهه من كهف يسمى كهف بجة، تغطى صخوره رخمــة (أنثـى النسـر) عملاقة هى رمز مصــر العليـا، وصقـر رمـز مصـر السـفلى، ويحمـل الإلـه أوزيريس إناءً يخرج منه مياه الفيضان (شكل ١).

وقدس المصريون القدماء نهر النيل منذ بداية حضارتــهم، معتقديـن أن مياهه منحة إلهية – وهى فعلاً كذلك –، وفسروا زيادة مياه النيـل وقـت الفيضان بأنها ترجع إلى دموع الإلهـة إيزيـس Isis، التـى بكـت زوجـها أوزيريس – إله الزراعة والخضرة والبعث – بعد مصرعـه علـى يـد أخيـه ست Seth – إله الشر والجدب.



شكل (١)

وفى ١١ بؤنة (حوالى منتصف شهر يونيو) من كل عـام، تدمـع عيـون إيزيس دمعة واحدة، تنزل فى مصب نهر النيل فتفيض مياهُـه، وتسـمى هذه الليلة بليلة النقطة، ومازال يحتفل بها أهـالى جنـوب مصـر احتفـالاً شعبيًا حتى الآن، على أساس أنها بداية الفيضان.

وهكذا.. فإن مقولة المؤرخ هيرودوت Herodotus - أبو التاريخ - الذى زار مصر فى حوالى سنة ٤٥٠ قبـل الميـلاد بـأن (مصـر هبـة النيـل) علـى جانب كبير من الحقيقة، نظرًا لأن النيل يجلب الماء والطمى إلى الوادى، مما يساعد على خصوبة التربة، وزراعة النباتات المختلفـة، وبذلـك فـهو يمد مصر بالحياة، ولو انقطع جريانه لجفت هذه التربة وأصبحـت ترابًـا

تزروه الرياح، ولأصبحت مصر كلها واديًا جافًا متسعًا لا يختلف عن وديان الصحراء الكبرى فى شمال أفريقيا.

ولكن يجب ألا نغفل قيمة الفلاح المصرى القديم فى حسن استغلاله لمياه النيل خاصة وقت الفيضان، حيث تتدفق المياه بسرعة مندفعة فى طريقها إلى البحر المتوسط، فإذا لم يسارع الفلاح فى اقتناص هذه المياه والاحتفاظ بها، فإن استثمار هذه الأراضى لن يستمر إلا لشهور قليلة.

ولم تنحصر الخسائر الناجمة عن تدفق مياه النيل وقت الفيضان فى فقد كميات المياه اللازمة للرى فحسب، ولكن هذه المياه المندفعة عملت أيضًا على جرف جوانب النهر، وإزالة التربة، وإغراق الأراضى الزراعية وتدمير القرى الواقعة بالقرب منه، لذا كان من اللازم أن يتضافر جهود الجميع لإقامة الجسور والسدود.

ففى شهور الربيع ينشط الفلاحون فى رفع المياه بالشادوف لرى زراعاتهم، ويقضون معظم وقتهم فى إصلاح قنوات الرى حتى تصل المياه إلى الحقول البعيدة. وهكذا دفع الفلاح المصرى القديم ثمنًا غاليًا من العمل الدؤوب المتواصل للاستفادة من المنحة الغالية من مياه النهر المتدفق وقت الفيضان، ولولا ذلك العناء لكان المستفاد من المياه أقل، ولانكمشت الرقعة الزراعية، ولما حصل الفلاح المصرى القديم إلا على محصول واحد فى السنة يختطفه اختطافًا عقب كل فيضان.

ولكن ما هو أساس تسمية نهرنا الخالد باسم النيل Nile ؟

ليس من السهل علينا تتبع أصل هذه التسمية، ولكن يقال إن هذه التسمية مأخوذة عن اليونانية Neilos، أو ربما تكون مأخوذة عن

الفارسية Nil بمعنى أزرق، أو تكون راجعة إلى اسم ملك مصرى قديم يعرف باسم نيلوس، حكم مصر فى عصر ما قبل الأسرات، واهتم بحفر الترع والقنوات لتحسين رى وصرف الأراضى الزراعية.

ولقد تعاقبت أجيال كثيرة من المصريين القدماء القاطنين لضفتى نهر النيل منذ العصر الحجرى إلى بداية عصر الأسرات، كانت تقدس النيل وتطلق عليه أسماء متعددة مثل النهر (أترو)، والنهر العظيم (أترو - عا) التى اشتق منها اسم (ترعة) التى نتداولها حاليًا لتسمية الفروع الصغيرة من النهر. كما أطلقت أسماء عديدة أخرى على نهر النيل، فهو رب الرزق العظيم، ورب الأسماك، وخالق الكائنات، وواهب الحياة.

واقتصر استخدام الاسم (حابى) على روح النيل وجوهره، والتى كانت تنبع من رقعة المياه البدائية التى لا نهاية لها، والتى كانت تمثل الإله نون Nun رب الماء الأزلى عند حافة العالم. وكان هذا المسطح المائى بالغ الاتساع يحتوى على جميع عناصر الخليقة التى ستأتى بعد ذلك، ويقول المصرى القديم فى ذلك:

«استيقظ الرب. . خالق المستقبل ذات يوم فى جوف هذه المياه ليدرك نفسه . . وأضفى شكلاً جسديًا على فكرة نفسه التى تكونت فى روحه».

ومن بين الأناشيد الأخرى التى دبجها المصرى القديم فى وصف النيل:

«هو الذى يذهب فى وقته . . ويأتى فى وقته . .

الذى يحضر المآكل والمون . .

هو الذى يأتى بين الأفراح، المحبوب جدًا . .

رب الماء الذى يجلب الخضرة . .

يتفانى الناس فى خدمته، ويحترمه الآلهة . .

هو إله صغير خلقه رع من أفضل عناصره .

وكذلك

«كل من يرى النيل فى فيضانه تدب الرعشة فى أوصاله..

أما الحقول فهى تضحك . .

والشواطئ تكسوها الخضرة . .

وتتساقط هدايا هذا الإله . .

وتعلو الفرحة وجوه البشر .

ولقد خشى الفلاح المصرى القديم فيضان النهر، سواء كان منخفضًا فتجف مزروعاته، أو مرتفعًا فيغرقها. وكان الفلاحون القدماء ينشدون :

«عندما يكون النهر بطيئًا . . تتوقف الأنفاس . . ويعم الفقر وتقل القرابين . . ويهلك الملايين من البشر، وعندما يكون عنيفًا . . تصبح البلاد كلها فى رعب شديد . . وينتحب الكبير والصغير . .

ويناجى الملك إخناتون – صاحب مذهب التوحيد – ربه قائلاً :

«فجرت النيل لمصر من باطن الأرض . .

تجريه بالزيادة والنقصان كيفما تشاء . .

وأغثت العالم من حول مصر بماء السماء . .

لتحفظ الحياة على أهل مصر لأنك اصطفيتهم لنفسك . .

وأنت ربهم جميعًا».

ولقد حدث فى عصر الملك زوسر Zoser – بانى الهـرم المدرج بسـقارة من عهد الأسرة الثالثة فى الدولة المصرية القديمة – أن تأخر فيضان النهر سبع سنوات متواليات، فجدب الزرع، وعم القحـط، وندرت الحبـوب، وزاد البؤس، وانتشر البلاء، وحل الشقاء.

ولما رأى الملك زوسر تلك النكبـة التـى حلـت بـالبلاد، ضـاق صـدره، واستشار وزيره إمحوتب Imhotep فى الأمر، فأشار عليه وزيـره أن يقـوم باستعطاف الإلـه خنـوم Khnum إلـه النيـل، والحـاكم المسـيطر علـى منابعه. (شكل ٢).



شكل (٢)

وشـد الملـك رحالـه إلى معبـد الإلــه (خنــوم) بأسوان، وتضرع إليــه مسـتعطفًا، وقـدم القرابـين لمعبده، فوعده الإله بأنه سيوزع مياهـه، وسـيغمر بها الأراضــى كلـها بوفـرة، وأن الــزرع سـيأتى بمحصـول أوفـر ممـا كـان، وسـتذهب قطعـان الماشـية إلى شـواطئه للسـقايا، وسـتزول الضائقـة التـى يقاسـيها الشـعب، وسـتنتهى المجاعـة،

وستملأ جميع الصوامع الخالية بالحبوب، ويعود الخير والرخاء للبلاد كما كان.

وبعد أن أوفى الإله (خنوم) بوعده، أصدر الملك زوسر مرسومًا سجل فيه اعترافه بنعمة الإله (خنوم)، وأوقف لمعبده مساحات شاسعة من الأراضي الواقعة على ضفاف النيل، وأرسل إلى المعبد هدايا ثمينة من الذهب والعاج والأبنوس والتوابل والبخور والأخشاب والأحجار الكريمة.

ولم تكن قصة سنوات القحط السبع، والسبع سنوات التى كان يعم فيها الخير من الأمور نادرة الحدوث، بل كانت محتملة وقابلة للتكرار فى عصور كثيرة متتالية، إذ أن الجسر الفاصل بين الحياة والموت لم يكن سوى جسر ضيق حرج، هذا مما جعل الفلاح المصرى القديم متعجبًا من سلوك النهر. ولم يكن فى استطاعة أحد أن يظل ساهرًا على حماية البلاد كلها اللَّهم إلا حكومة منظمة تملك فى يدها مقاليد الأمور، وهذا بدوره كان هبة أخرى وهبها النيل لمصر.

وذكرت القصص الدينية أنه أتت على مصر سبع سنين سمان، كان فيها الفيضان مرتفعًا، فامتلأت الصوامع بالغلال، ثم تلتها سبع عجاف، انخفض خلالها ماء النهر انخفاضًا شديدًا، فأصبح الناس فى شقاء. وفى هذه الفترة كان سيدنا يوسف – عليه السلام – مشرفًا على صوامع الغلال، واقتصد من سنوات الرخاء لسنوات الشدة، ويعتقد أن ذلك كان خلال حكم الهكسوس لمصر (١٧٨٥ – ١٥٨٠) قبل الميلاد، والذى أشار إليه القرآن الكريم فى سورة يوسف:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ
مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

(صدق الله العظيم)

٢ الزراعة .. ابتكار مصرى أصيل

يتردد فى ذهنى دائمًا سؤالٌ تقليدى . .

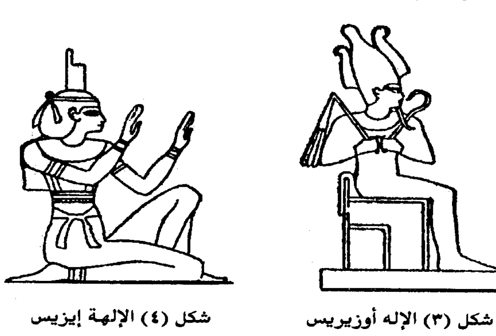
متى عرف الفلاح المصرى القديم الزراعة ؟

تقول النظريات القديمة إن الفلاح المصرى القديم عرف الزراعة فى وادى النيل منذ نحو ستة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام، إلا أن الآثار التى وجدت بعد ذلك تدل على أن ذلك الفلاح مارس مهنة الزراعة قبل ذلك التاريخ بآلاف أخرى من السنين.

ونحن لا ندرى كيف اهتدى الفلاح المصرى القديم إلى زراعة النباتات؟، فهل كان ذلك اكتشافًا ؟.. أم اختراعًا؟.. أم ابتكارًا؟.. ربما كان ذلك كله.. ولكن - على أية حال - كان ذلك محاكاة للطبيعة التى عاش فيها هذا الإنسان المصرى القديم آلاف السنين، متجولاً وملتقطًا للثمار، حتى هداه تفكيره إلى تكرار عملية سقوط الحبوب والبذور على الأرض، وإنباتها، ثم نموها نموًا خضريًا ينتهى بالإثمار والنضج دون تدخل منه بالرى أو الرعاية.

ولم ينسب الفلاح المصرى القديم لنفسه أى فضل فى ابتكاره لهذه الحرفة التى غيرت مجرى تاريخ البشرية، ولكنه - كعادته - نسب ذلك

إلى فضـل الآلهة، وخص بهـا الإلـه أوزيريس - إله الزراعة والخضرة والبعث - الذى علم البشرية الزراعة والقانون، بينما نسـب إلى زوجتـه - إيزيس - ابتكار الأدوات والآلات الزراعية.



شكل (٣) الإله أوزيريس

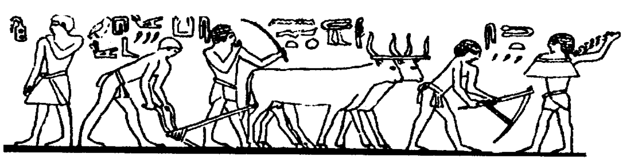
شكل (٤) الإلهة إيزيس

ويعتبر أهالى مرمدة بنى سلامة - بالقرب من الفيـوم - أول مـن مـارس الزراعة فى العصر الحجرى الحديث على نطـاق واسـع، وعرفـوا صناعـة بعض الأدوات الزراعية من الحجر، مثل الفأس الحجرية التى اسـتعملت فى فلاحة الأرض وقطع الأشجار.

وكانت هذه الفأس عبارة عـن قطعـة مـن حجـر الصـوان علـى شـكل كلوى، منحنية من أحد طرفيها بحيث تكون مسنونة وحادة، ويتصل بها مقبض خشبى صغير من الطرف الآخر، وكانت تعرف باسـم فـأس قبضـة

اليد. ولقد حلت هذه الفـأس البدائيـة محـل اليـد فـى نبـش التربـة عنـد زراعتها.

وتطورت شكل فأس قبضـــة اليـد بعـد ذلـك، وصـارت قطعـة خشـبية منحنية تستعمل كسلاح، وتثبت مـن طرفـها فـى عصـا خشـبية منحنيـة تستعمل كمقبض للفأس، ثم يشـد المقبـض إلى القطعـة الخشـبية العريضـة (السلاح) من منتصفها تقريبًا بواسطة حبل من الليف يساعد على التحكم في المسافة بينهما (شكل ٥).

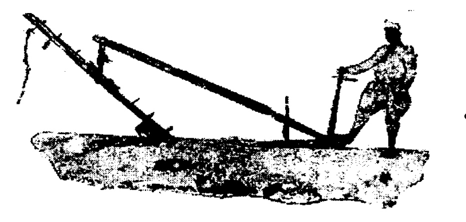


شكل (٥) حرث الأرض تمهيدًا لزراعتها، على اليسار فلاح يحرث الأرض بمحراثه، وبجانبـه فـلاح آخـر يحمـل عصـا يلوح بها للتحكـم فـى الثوريـن اللذيـن يجـران المحـراث، وأمامه فلاح يحرث الأرض بفأس خشبى، بينما يبذر فـلاح آخر الحبوب.

ولقد أخذت الفأس الخشبية أشكالاً متنوعة، منها الفأس ذات السلاح العريض التـى تسـتخدم فـى حفـر وعـزق الأرض الخفيفـة، وفـى تطـهير الترع، والفأس ذات السلاح المدبب التى تستخدم فى حفر الأرض الجافـة الصلبة، والفأس ذات السلاح المتشعب.

وكانت هذه الفأس الخشبية تصنع من أخشاب محلية لأشجار مألوفة لدى الفلاح المصرى القديم، مثل أشجار الصفصاف والسنط وغيرهما. ولقد استمرت صناعة الفأس الخشبية طوال العصور الفرعونية القديمة، وكانت تستعمل فى الواحات إلى عهد قريب.

ويعتبر المحراث من أهم ابتكارات الفلاح المصرى القديم، التى ساعدته على حراثة الأرض، حيث طور الفلاح الفأس الخشبية وأصبحت عبارة عن مقودين رأسيين مثبتتين بأخشاب متقاطعة تنحنى بزاوية ينتهى طرفها بسلاح المحراث. وتوجد دعامة بين المقودين تنتهى عند سلاح المحراث، وتثبت بالحبال. ويثبت نير فى نهاية عمود طويل متصل بالمحراث، ويوضع هذا النير فوق رقبتى ثورين - غالبًا - ويربط إلى قرونها (شكل ٥).



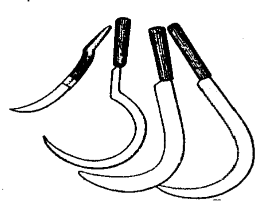
شكل (٦)
المحراث
المصرى

وكان يقوم بالحرث رجلان عادة، حيث يقع معظم العمل على الرجل القابض على يد المحراث، أما زميله فيقوم بقيادة الثورين، محاولاً السيطرة عليهما سواء بالصراخ، أو بعصا يحملها. ولقد استمر المحراث

المصرى على هيئته حتى وقتنا الحالى، ومازال يستخدم بنفس الطريقة فى بعض قرى مصر (شكل ٦).

ولم يكن المحراث هو الوسيلة الوحيدة التى تستعملّ فى تجهيز الأرض للزراعة، ولكن استعملت مطارق خشبية ومعاول تشبه المحراث فى شكلها، ولكنها كانت معرضة للاستهلاك بمعدل أكثر من المحراث، لذلك كان الفلاح المصرى القديم يضطر إلى أن يقضى الليل بطوله فى إصلاحه وتجهيزه للعمل فى اليوم التالى، وكانت هذه المطارق الخشبية تستخدم فى تفتيت كتل (قلاقيل) التربة وتنعيمها حتى تسهل زراعة الحبوب بعد ذلك.

ولم تقف ابتكارات الفلاح المصرى القديم عند ذلك، بل ابتدع أدوات حجرية أخرى مصنوعة من حجر الصوان الصلد، فصنع مناجل ذات أسلحة مسننة، ويد خشبية صغيرة على غرار شكل الفك السفلى للحيوانات العشبية، وكانت أسنان المنجل هى أسنان ذلك الحيوان. ولقد طور الفلاح المصرى المعاصر تلك المناجل القديمة وصنعها من المعدن، ولكنها احتفظت بشكلها القديم (شكل ٧).



شكل (٧): مناجل ذات أسنان وأخرى بدون أسنان، يستعملها الفلاح المصرى المعاصر، وتشبه تلك التى استعملتها أسلافه القدماء.

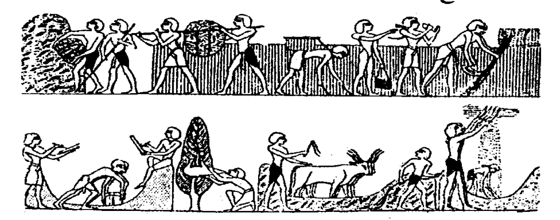
واستعملت هذه المناجل فى حصاد سنابل القمح والشعير بعد نضجها، فكانت تقطع السنابل ومعها جزء من الساق، بينما تترك معظم السيقان والأوراق حيث تتغذى عليها الماشية (شكل ٨). كما ابتكر الفلاح المصرى القديم مذراة لفصل حبات القمح عن التبن، حيث صنعت المذراة من قطع خشبية على شكل راحة اليد.



شكل رقم (٨)

وكانت تتم عملية التذرية وقت هبوب الرياح، حيث يمسك كل فلاح لوحتين من المذراة ويأخذ بهما كمية من الحبوب المختلطة بالقش

والأتربة، ثم يرفعها إلى أعلى قدر استطاعته، فتسقط الحبوب الثقيلة، بينما تحمل الرياح القش والمواد الأخرى خفيفة الوزن بعيدًا (شكل ٩).



شكل (٩) : مراحل حصاد القمح (الشعير): الصف العلوى على اليمين فلاح يقوم بالحصاد باستعمال منجل، وخلفه فلاح آخر يستريح قليلاً، واضعًا منجله تحت إبطه – كما يفعل فلاحى اليوم – ويأخذ جرعة من الجعة (البيرة) التى تحملها له زوجته الواقفة خلفه، بينما تنحنى سيدة لجمع السنابل بعد حصادها، التى تحمل بعد ذلك فى سلال من الخوص حيث تجمع فى كومة كبيرة خلف الحقل.
الصف السفلى: دراس القمح (الشعير) عن)ريق مرور الثيران فوقها، ثم التذرية، وفى الوسط فلاح يشرب جرعة ماء من قربة معلقة على شجرة فى الحقل، وعلى اليسار تقدير المحصول وتسجيله.

واستعملت غرابيل مصنوعة من خوص النخيل والدوم والحلفا والبردى، وغيرها من النباتات المصرية القديمة، وذلك لفصل ما تبقى من تبن أو أى شوائب أخرى عن الحبوب.

ولم يكن يمثل رى المحاصيل التى زرعها الفلاح المصرى القديم أية مشكلة، فمياه النيل تفيض مرة كل سنة، ويتم احتجازها فى أحواض تظل مغمورة بالمياه لفترات طويلة، فتتشبع التربة بالماء ثم تزرع بعد ذلك، وكانت هذه الطريقة مستعملة لرى أراضى جنوب الوادى قبل السد العالى، وتعرف برى الحياض.

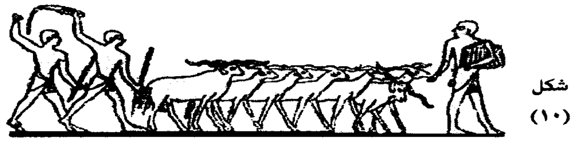
وكان الحوض يتكون من مساحة من الأرض تحيط بها جسور طويلة تمتد موازية للنهر، وأخرى مستعرضة تمتد بين النيل وحدود الصحراء. ولكل حوض قناة خاصة تحمل مياه النهر إليه. وتقام سدود من الأحجار عند منبع الترعة من النهر، وفى مناطق عبور القناة عند الجسور، كما كانت هناك سدود أخرى للتحكم فى المياه التى تخرج من الحوض (مصارف) لتنصرف إلى النيل، أو إلى حدود الصحراء المجاورة للحقول. ولا تجرى المياه فى القناة التى تغذى الأحواض إلا وقت الفيضان، بينما تظل جافة باقى شهور السنة.

ويتراوح عمق الماء فى الحوض بين ثلاثة أمتار وثلاثين سنتيمترًا، بمتوسط متر واحد، وتظل المياه فى الحوض مدة تتراوح بين أربعين وستين يومًا، حيث تكفى هذه المدة لتشبع التربة بالماء، وتغطيتها بالطمى الذى يزيد من خصوبتها.

وكانت حقول القمح والشعير تمتد فى مصر القديمة من مستنقعات الدلتا، حتى الشلال دون انقطاع، حيث اهتم الفلاح المصرى القديم - حينذاك - بحراثة الأرض، ثم يترك مياه الفيضان تغمرها لمدة أربعة

شهور، فإذا ما انحسرت المياه، بدأ فى نثر الحبوب، وكانت طريقة الزراعة هذه تعرف بالزراعة الحراتي.

وهناك طريقة أخرى كانت تعتمد على غمر الأراضى الزراعية بمياه الفيضان أولاً، وبعد انحسارها تحرث الأرض، وتبذر الحبوب، ثم يساق قطيع من الدواب (الأغنام أو الخنازير) لتطأ بأقدامها الحبوب وتدفنها فى باطن الأرض حتى لا تلتقطها الطيور، ولتجد هذه الحبوب المهد الملائم للإنبات، وكان الراعى يحمل كمية من العلف يقدمها للنعجة التى فى المقدمة فتطيعه، وتسير كيفما يريد، ويتبعها باقى القطيع (شكل ١٠).

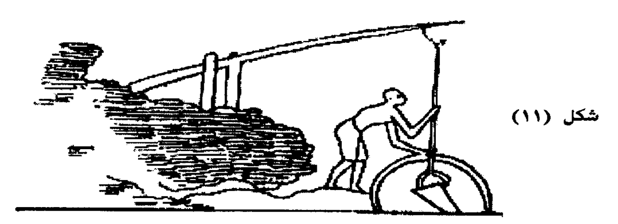


شكل (١٠)

أما رى الأراضى المرتفعة التى لا تصل إليها مياه الفيضان فكانت مشكلة حقيقية، إلا أن الفلاح المصرى القديم استطاع بفضل رعاية الإله أوزيريس - حسب اعتقاده - أن يبتدع آلات بسيطة فعالة، كانت قادرة على رفع الماء إلى هذه الأراضى العطشى، مثال ذلك جرار الفخار، وقرب الماء، والشادوف، والطنبور، ثم الساقية فى العهد الفرعونى المتأخر.

واستعملت الجرار الفخارية، وقِرَب الماء فى رى أشجار بساتين الفاكهة، مثل التين والجميز والرمان والعنب، حيث يصب الماء فى جسور منخفضة حول قاعدة ساق الشجرة.

وكانت هذه الحدائق تقسم إلى أحواض صغيرة بواسطة قنوات متقاطعة في زوايا قائمة، وتملأ الجرار الفخارية بالماء من هذه القنوات وتفرغ في كل حوض حتى يتم رى الحديقة كلها، حيث يستغرق هذا العمل وقتًا طويلاً وعملاً شاقًا.



شكل (١١)

واستعمل الشادوف في رى الأراضي الزراعية منذ بداية العهد الفرعوني. ويتركب الشادوف من عمود قوى رأسي، يبلغ طوله ضعف قامة الرجل، يثبت في الأرض على حافة الترعة (النهر). وإذا وجدت شجرة تصلح لذلك في المكان المناسب نزعت فروعها، ثم يثبت عمود طويل أفقيًا فوق العمود الرأسي، وبذلك يمكن أن يتحرك في مختلف الاتجاهات.

ويثبت حجر ثقيل في نهاية العمود الأفقي، أما الطرف الآخر فيثبت فيه وعاء من الفخار أو من القماش السميك بحبل يبلغ طوله نحو خمسة أو ستة أذرع، ثم يشد الفلاح الحبل، فيمتلئ الوعاء بالماء، ويترك الحبل فيرفع الثقل المقابل للوعاء المملوء بالماء (شكل ١١). وكان الرى بهذه

الطريقة بدائيًا ومجهدًا، ولكنه كان كافيًا لـرى بسـتان أو حديقـة (شـكل ١٢)، ولكن لم يستخدم فى رى الحقول الواسعة.



شكل (١٢)

ولم يعرف الفـلاح المصـرى القديـــم الطنبـور إلا فـى العصـر الرومـانى (٣٣٢ – ٣٠ قبـل الميـلاد)، ويرجـــع الفضـــل فـــى اختراعـــه إلى العـــالم أرشميدس Archimedes، لذا يطلق على الطنبور اسم (بريمة أرشميدس). وشاع استخدام الطنبور فى أراضى الدلتا منذ ذلك الوقت إلى عـهد قريـب وذلك لرفع الماء من الترع المنخفضة قليـلاً عـن مسـتوى الأرض الزراعيـة، بينما استعملت الساقية فى القرن الثانى قبل ميلاد السيد المسيح.

وهكذا.. لم يعدم الفـلاح المصـرى القديـم وسـيلة فـى ابتكـار الأدوات والآلات الزراعية التى تسهل له عمله فى تجـــهيز الأرض للزراعـة، وفـى توفير الماء اللازم لريها، وفى العناية بالنباتات حتى وقت الحصاد.

ولقد أفنى هذا الفلاح وقته وجهده وعمره كله فى خدمة أرضه، وعلى الرغم من ذلك كان محط حسد جيرانه من سكان البـلاد القاحلـة، فيقـول المؤرخ هيرودوت مقارنًا فلاحنا المصرى القديم المحظوظ بفلاحـــى الإغريـق

القدماء الذين اعتادوا زراعة أراضى المنحدرات الصخرية، واعتمدوا على المطر القليل المفاجئ:

«فالنهر يفيض من تلقاء نفسه ويروى الحقول، ثم ينحسر ثانية بعد ريها، وهناك يلقى كل مزارع بالبذور فى حقله، ويطلق عليها الخنازير، وعندما تدوس هذه البذور وتغرسها فى الأرض الرطبة، ينتظر بعدئذ موسم الحصاد، وهنا يدرس القمح بواسطة الخنازير، ويحمل الحبوب بعد ذلك إلى الدار».

وفى الواقع، لم يكن الأمر كذلك لدى الفلاح المصرى القديم ولا المعاصر، فالعمل الزراعى يتطلب كدًا جماعيًا مستمرًا من أجل إقامة السدود، وشق الترع والقنوات، وأداء العمليات الزراعية المختلفة، وإلا قضى على محصوله، عملاً بالمثل القديم «ساعد نفسك يساعدك النيل». فالأمطار - حتى فى الدلتا - ليست كافية فتغنى عن رى الحقول، أما فى جنوب الوادى فالحرارة مرتفعة، وسرعان ما تجف الأرض وتتشقق، فتتلف البادرات الصغيرة وتموت، لذا كان رى الأرض ضروريًا.

وهكذا.. يستمر الفلاح يكد ويكدح طول يومه، إلا أن ذلك لم يفقده روحه المرحة، وتعاونه مع زملائه، مترنمين ببعض الأغانى الدارجة التى تساعده على إتمام العمل على أتم ما يكون. ومازال فلاح اليوم يفعل ما كان يفعله الفلاح المصرى القديم، مترنمًا بنفس الكلمات دون أن يدرك

معناها. فعلى سبيل المثال كلمة (هيهليصا) تعنى (هيا.. لقد سقطنا فى الوحل!)، وكلمة (هوب) معناها شغل أو عمل.

ومن العجيب أن هناك عديدًا من الكلمات الفرعونية الأخرى مازال فلاح اليوم يستخدمها بنفس معناها، مثل (لبشة) قصب، و (مشنة) عيش، و (زباطة) بلح، و (ويبة) قمح، و (أردب) فول. حتى الفأس أصلها كلمة فرعونية هى (فوس)، والشونة أصلها (شونى).. فهل مازالت روح الفلاح المصرى القديم تعيش بين جوانحنا نحن الأحفاد؟.

وعندما تبدأ سنابل القمح فى النضج، وتأخذ لونها الذهبى الجميل، يستعد الفلاحون لحصاد محصولهم باستعمال مناجل قصيرة، فيمسكون حزمة القمح باليد اليسرى، ويقطعون السنابل وجزء صغير من الساق باليد اليمنى التى تحمل المناجل (شكل ٨). ويأتى النساء خلف الحاصدين ويجمعن السنابل فى مقاطف وينقلنها إلى نهاية الحقل (شكل ٩)، بينما يحمل بعض النسوة أوانى يجمعن فيها الحبوب التى تسقط على الأرض.

ويستمر حصاد القمح من شروق الشمس حتى غروبها، تتخللها فترة راحة وقت الظهيرة، فيشرب الفلاحون جرعة من الماء أو الجعة (البيرة)، ويأكلون ما أحضرته زوجاتهم لهم من طعام، ومناجلهم على أكتافهم أو تحت أبطهم (شكل ٩).

وعادة ما يصنع المزارعون حزمة من سنابل القمح الخضراء على شكل عروسة، تسمى (عروسة القمح)، وتهدى إلى صاحب الحقل ليرى مدى جودة محصول أرضه هذا العام، ومازالت هذه العادة موجودة فى

الريف المصرى، حيث تعلق عرائس القمح على أبواب منازل القريــة رمـزًا للخير والبركة.

ويباشر أصحاب الأراضى عملية الحصاد، ومعهم عدد كبير من الكتبـة والمساحين والموظفين وجـامعو الضرائـب، يقومـون بقيـاس الحقـل وتقديـر المحصول المتوقع تمهيدًا لحساب كمية الضرائب المسـتحقة - التـى تقـدر عادة بنحو خمس المحصول - وتسلم لممثلى الخزانة العامة التابعة لفرعون نفسه، أو لإدارة المعابد إذا كانت الأرض مخصصة لها.

ويظل صاحب الأرض مقيمًا به أثناء الحصاد، وقد يصطحب معه أفراد عائلته ومعهم بعـض المقـاعد، وألـوان الطعـام والشـراب المختلفـة، وذلـك لمراقبة الفلاحين أثناء حصادهم للمحصول، ولقضــاء وقـت ممتـع بـالريف كما يفعل أثرياء فلاحى مصر المعاصرين.

وتصف أحد البرديات وصف فلاح مصرى قديم لذلك فتقول:

«لقد وفد ملاك الأرض بعرباتهم وخيولهم، ثم أقـاموا ثلاثـة أزيـار صبوا فيها الماء، وفتحوا صنـاديق أخرجـوا منـها خـبزًا ومـأكولات متنوعة، وضعوها فى أطباق وسلال. وكـان السـيد يرتـدى الملابـس الرسميـة، واضعًـا علـى رأســه شـعرًا مسـتعارًا، وحــاملاً عصــا وصولجانًـا، ومنتعـلاً فـى قدميـه صنـدلاً يحميــه مـن الأعشــاب الشوكية».

ويستغرق حصاد ودراس القمح أسابيع طويلة، وقد يتطلب الأمر جلـب عمال تراحيل من قرى أخرى بعيدة حتى يمكــن إتمـام العمـل فـى وقـت مناسب.

وبمجرد أن يفرغ الفلاحون من حصد جزء مـن الحقـل، فـإن السـنابل التى تم حصادها يتم جمعها أولاً بأول خوفًا عليـها مـن اللصـوص، ومـن الطيور التى تحوم حول الحقل وتلتهم جزءًا كبيرًا من الحبوب. ويتم ربـط السنابل داخل أكياس من شباك الحبال المجدولـة، تنقـل عـادة بواسـطة الحمير.

وفى جنوب الوادى كان الفلاحون يستعملون أكياسًا مـن الشـباك ذات إطار خشبى، ومزودة بحلقتين تعلق منهما، وعندما يمتلئ الكيس بسنابل القمح يدخلون فى الحلقـة عمـودًا مـن الخشـب يـتراوح طولـه بـين أربـع وخمس أذرع، ويربط الكيس بأنشوطة، ثم يحملـه رجـلان يضعـان طرفـى عمـود الخشـب فـوق أكتافـهما، ويتجـهون بـه إلى مكـان درس الحبـوب (شكل ٩).

وبعد ذلك تنشر سنابل القمح فوق جزء من الحقل خال من المزروعات، دكت أرضه بعناية، وعندما تتراكم طبقة سميكة من السنابل يحضر الرعاة ومعهم ثيرانهم، حاملين سياطهم (شكل ٩)، وبعد أن تطأ الثيران سـنابل القمح، يقلبها الفلاحون بالمذارى للتخلص من القشور والتبن، بينما يحث الراعى ثيرانه على العمل قائلاً:

«ادرسى.. إن هذا لك..

ادرسى.. إن التبن هو غذاؤك.. أما الحبوب فهى لسادتك..

لا تتوقفى عن العمل فإن الطقس جميل».

وتبتعد الثيران عن مكان الدراس بعد تمامه، حينئذ يحضر الفلاحون ويقومون بفصل الحبوب عن القش باستعمال المذراة، وهى أداة من الخشب مازالت تستعمل فى بعض قرى مصر (شكل ١٣)، ثم يقوم فلاحون آخرون بغربلة الحبوب، رافعين أيديهم، دافعين الحبوب لأعلى قدر استطاعتهم، فتسقط فى الغربال مرة أخرى، أما القش والأتربة فتذروها الرياح. ويستمر ذلك العمل حتى تصبح الحبوب نظيفة خالية من الشوائب.



شكل (١٣)

وهنا يأتى دور الكتبة، فيحضرون ومعهم أدواتهم الكتابية، والكيالون ومعهم أدوات الكيل التى مازلنا نستخدمها حتى الآن مثل القدح والكيلة، وتبدأ عملية تقدير محصول الحبوب. وعندما ينتهى هذا التقدير، يتم تخزين الحبوب فى صوامع عالية مصنوعة من الطين والتبن، ذات شكل مخروطى وقاعدة مستديرة، ولها درجات تؤدى إلى فتحة علوية تفرغ فيها الحبوب، بينما توجد فتحة أخرى سفلية لسحب الحبوب فيما بعد. ومازالت هذه الصوامع مستخدمة فى بعض قرى مصر لتخزين الحبوب.

ولقد كـانت مصـر – فـى ذلـك العـهد السـعيد – منتجـة للحبـوب – وأهمها القمح – بما يكفى أهلها ويزيد، ووفـرت لجيرانـها مـا يحتـاجون إليه من القمح. وقد جاء فى التوراة (الإصحاح ٤١ ٢) ما نصه:

«وجـاءت كـل الأرض إلى مصـر، إلى يوسـف لتشـترى قمحًـا، لأن الجوع كان شديدًا فى كل الأرض».

وفى الإصحاح ٤٢:

«فلما رأى يعقوب أنه يوجد فى مصر قمحًا قال لبنيـه: لمـاذا تنظـرون بعضكم إلى بعض؟ إنى سمعت أنه يوجد فـى مصـر قمحًـا، انزلـوا هنـاك واشتروا لنا منه، لنحيا ولا نموت، فنزل عشرة من أخوة يوسف ليشـتروا قمحًا من مصر».

٣ الفلاح المصرى .. الفصيح

تدين مصر بثرائها إلى الفـلاح المصـرى - القديـم والحديـث - الـذى يعمل كادحًا، ويرضى بالقليل، فقد دأب علي العمـل فـى الأرض دون أن يناله التعب، حتى لو كانت هذه الأرض ملكًا لغيره، منتجًـا محصـولات متنوعة كانت سببًا مباشرًا فى رخاء البلاد. ولقـد كـرّت القـرون والأعـوام على ذلك الفلاح المصرى، تغيرت فيها الدنيا من حولـه، بينمـا لم يتغـير هو قيد أنملة.

فلا تزال نظرة الفلاح المعاصر هى نفسها نظرة الفلاح المصـرى القديـم، فنجده قانعًا، خالىَ البال من الهموم، مرحًا، وفيًا لأرضه، متمتعًا بحياتـه رغـمَ مشـقتها. وكـانت قدمـاه دائمًـا فـى طـين النـهر، سـواء كـان يـزرع أو يحصد.

وفى بردية قديمة تصف حال الفلاح:

«إذا غمـرت ميـاه الفيضـان الأرض، اعتنـى الفـلاح بأدواتـه الزراعية، فيقضى يومه يصنع معـدات حـرث الأرض، ويقضـى ليله يصنع الحبال، وحتى فى وقت الظهيرة يستمر فى أعمالـه الزراعيـة، فيعـد أدواتـه الزراعيـة كمـا يعـد المحـارب نفسـه للقتال».

ولكن كيف كان يقضى الفلاح المصرى القديم وقته؟

هل كان يظل منحنى الظهر وهو قابض على فأسه أو منجله؟

إن الأمر – فى الحقيقة – لم يكن كذلك.. فلقد كانت الحياة الصعبة التى يعيشها الفلاح المصرى القديم تتخللها لحظات سعيدة، ونظرًا لحبه للمرح فإنه كان لا يعدم مناسبة للضحك أو الغناء، وينتهز مناسبة الأعياد ليحتفل بها، والأوقات التى يخرج فيها مع رفقائه لصيد الطيور والأسماك من المستنقعات، أو صيد الحيوانات من أطراف الصحراء.

وعندما كان ذلك الفلاح يسوق قطيع الماشية أمامه فى المستنقع، كان يردد أغنية قصيرة للتمساح والسمك، وعندما يشترك فى حمل محفة سيده، يردد مع الآخرين أغنية ملأى بالمداهنة والإطراء، وعلى فمه ابتسامة خبيثة متطلعًا إلى ما عسى أن يناله من مكافأة أو عطاء.

وفى الحفلات والأعياد كان الفلاح المصرى القديم – والحديث أيضًا – يرقص ويلعب بكل ما فيه من قوة، ويملأ بطنه إلى حد التخمة من المآدب التى يقيمها سيده، وكانت ترتبط حياته بحياة حيواناته التى تعيش بجانبه ليلاً ونهارًا.

ولقد وجدت بعض ألعاب التسلية فى قبور المصريين القدماء يرجع تاريخها إلى منتصف عصر ما قبل الأسرات، أى منذ نحو أربعة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام، ومن أمثلة هذه الألعاب لعبة الداما، وهى على هيئة مائدة مصنوعة من الطين النيئ (اللبن) قائمة على

أربع قطع تقوم مقام الأرجل، وسطحها مقسم إلى ثمانية عشر مربعًا، ومعها نحو اثنتى عشرة قطعة للعب مصنوعة من الطين المغطى بالشمع.

وما زال الفلاح المصرى الحديث يحمل صفات أجداده الفلاحين المصريين القدماء، فهو محب لأسرته، ومتباه بذريته كثيرة العدد. ومازالت الاحتفالات القديمة تجد طريقها إلى حياتنا اليومية، كعيد شم النسيم فى الربيع والذى كان يتناول فيه الفلاحون القدماء البصل، ويتنزهون على سطح النهر المقدس بقواربهم الصغيرة المزدانة بزهور البردى واللوتس، ومازال المغنى يضع يده على أذنه اليسرى كما كان يفعل أجداده القدماء.

ويمكن القول بأن الفلاح المصرى القديم - حتى لو كان أجيرًا - فإنه كان يزرع ويكد ويشقى، ويحصل عند الحصاد على معظم المحصول لنفسه، ولا يورد لمالك الأرض سوى ضريبة عينية من المحصول تتراوح بين ١٠ - ٢٠٪ كل سنة.

وهناك ما يثبت ذلك فى سفر التكوين - الإصحاح ٤٧ - (الآيتان ٢٣، ٢٤)، حيث كان سيدنا يوسف - عليه السلام - يؤجر أملاك فرعون للفلاحين مقابل سداد خمس الإنتاج:

«فقال يوسف للشعب: إنى قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون، هو ذا لكم بذار فتزرعون الأرض، ويكون عند الغلة إنكم تعطون خمسًا لفرعون، والأربعة أجزاء تكون بذارًا للحقل وطعامًا لكم ولمن فى بيوتكم، وطعامًا لأولادكم».

وكان الفلاح المصرى الأجير - فى ذلك العصر الفرعونى - يعامل من أسياده ملاك الأرض معاملة كريمة، فالرسومات التى تغطى حوائط المقابر توضح الأمراء والأشراف وهم يجلسون فى مقصوراتهم، وأمامهم موائد القرابين العامرة بمالذ وطاب من المأكولات، وكانوا يراقبون الفلاحين وهم يقومون بحرث الأرض وبذرها، وعزق الأرض، وحصاد المحصول وتذريته وكيله، دون أن يصاحب ذلك سياطًا تلهب ظهور الفلاحين.

وفى نقوش على جدران مقبرة باحرى، وهو أعظم رجال الملك تحتمس الأول (١٥٣٥ قبل الميلاد) مناظر مختلفة عن حياته الخاصة ومتابعته لزراعة الأرض، وهى من أجمل المناظر التى تحكى عن الحياة اليومية للفلاح المصرى القديم (شكل ١٤).

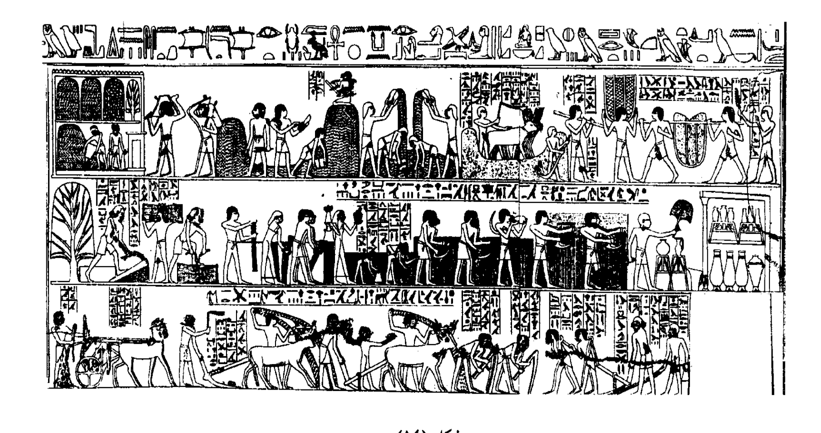
ويشاهد فى هذا الرسم منظر الزرع والحرث، فنرى محراثين تجرهما الثيران كما هو مألوف، بينما هناك محراث ثالث يجره أربعة رجال بالحبال (الصف السفلى على اليمين)، ويقول الفلاحون الذين يحرثون بالمحاريث التى تجرها الثيران:

«إنه يوم جميل يشعر فيه الإنسان بالنسيم العليل، والثيران تحرث، والسماء تعمل على حسب ما ترغبه قلوبنا، دعنا نعمل لهذا الشريف».

وكذلك نرى فلاحًا يقوم بالحرث ينادى زميلاً له يسير أمامه قائلاً:

«أسرع أيها القائد إلى الأمام بالثيران..

تأمل.. إن الأمير واقف ينظر إلينا»



شكل (١٤)

جزء من رسومات جدارية فى مقبرة باحرى – أكبر رجال الدولة فى عهد الملك تحتمس الأول – توضح مراحل زراعة القمح.

ويدل ذلك على أن الفلاح المصرى القديم كان يجتهد فى عمله إذا كان صاحب العمل منتبهًا لهم، ومراقبًا لعملهم، كما هو الحال فى كل عهد.

وفى نفس المنظر نجد فلاحًا يفتت كتلاً من الطين الجاف بفأسه الخشبى، وينادى زميله الذى يعمل معه قائلاً:

«يا صديقى.. أسرع فى العمل.. حتى ننتهى فى وقت مبكر».

فيرد عليه زميله قائلاً:

«إنى سأعمل أكثر من العمل الذى يجب أن أعمله للشريف.. فالزم الصمت».

أما الفلاحون الذين يجرون المحراث، فإنهم كانوا مرحين، إذ أن (باحرى) مر بهم عندما كان متجهًا نحو النهر، وحضهم على الإسراع فى عملهم، فأجابوه:

«إننا نفعل ذلك، انظر إلينا.. لا تخف على حقول الغلال.. إنها حسنة جدًا».

ويعلق على هذا الحوار فلاح مسن قائلاً:

«حقًا.. إن حديثك مدهش للغاية يا بنى.. فإن السنة طيبة خالية من الأمراض، وكل أعشابها جيدة، والعجول فيها ممتازة أكثر من أى شىء».

وفى الصف الأوسط توضح النقوش مرحلة نضج القمح وحصاده، حيث يقوم الفلاحون بحصد السنابل بالمناجل، وخلفهم امرأة وطفل يلتقطان

ما خلفه الحصادون، فى حين نرى امرأة ثالثة تحمل سلة وبعض الخبز (فى المنتصف)، وتقول لأحد الحصادين:

«أعطنى حزمة.. انظر.. سنأتى فى المساء فلا تعد لشح البارحة.. تخل عنه اليوم - أى اترك لنا بعض السنابل نلتقطها اليوم».

وفى نهاية حقل الحصاد توجد مظلة صفت تحتها أوانى للشرب مصنوعة من الفخار، بعضها كبير يشبه الأزيار، والبعض الآخر صغير يشبه القلل التى مازالت تستعمل فى قرى مصر.. وتصف هذه الأوانى الفخارية على قواعد (حوامل) من الخشب، ويشاهد اثنتان منها خارج المظلة يرّوح عليهما خادم بمروحة من سعف النخيل لتظل باردة.

وبعد جمع محصول سنابل القمح، توضع فى سلال كبيرة معلقة فى قضبان، وتحمل على أكتاف فلاحين استعدادًا لدرسها (الصف العلوى على اليمين). وفى هذا الصف يشاهد (باحرى) قابضًا بيده على فرع شجرة، ويأمر حاملى السلال بالإسراع خوفًا من قدوم الفيضان الذى يهدد الحقول قبل الانتهاء من حصاد القمح، ثم يسمح فلاح يقول وهو عائد ليحمل سلة قمح.

«ألم أحمل القضبان طول اليوم كرجل؟ وهذا ما أحبه».

ومما تجدر ملاحظته هنا، أن النغمة السائدة فى هذا الحوار تدل على روح المرح، مع الجد والإخلاص والتفانى فى العمل، وهذا كان شأن الفلاح المصرى القديم.

ويقوم الفلاحون بتكويم سنابل القمح فى مكان الدرس، حيث تدوسه الثيران، بينما يقف فلاح آخر يعمل بمكنسته باستمرار لجمع السنابل الشاردة ووضعها فى مسار الثيران، ويغنى الراعى الذى يسوق الثيران أمامه فى دورانها الذى لا ينتهى قائلاً:

«ادرسى لنفسك.. ادرسى لنفسك أيتها الثيران..

ادرسى لنفسك.. أدرسى لنفسك.. فإن التبن لعلفك.. والغلة لأسيادك.. ولا تجعلى قلوبك تخمد.. فإن الجو بارد».

وبعد تمام الدرس، يقوم الفلاحون بتذرية القمح (الصف العلوى فى المنتصف) للتخلص من القش والأتربة، ثم يقدر المحصول ويوضع فى الصوامع. ويشاهد كاتب يجلس على كومة عالية من الغلال، يسجل مقدار المحصول.

وفى بداية العصر الفرعونى المبكر، لم تكن حرفة الزراعة ذات شأن كبير، بل كانت حرفة أقل شأناً عن غيرها من الحرف الأخرى، فكان الرجال يذهبون للصيد، بينما تبقى النساء للقيام بالعمليات الزراعية المختلفة (شكل ١٥)، بجانب أعباء المنزل والعناية بالأطفال.



(شكل ١٥)

وهناك بردية فى المتحف البريطانى لأب ينصح ابنه بعدم احتراف مهنة الزراعة، فيقول:

«وأما عمال الحدائق، فعليهم أن يعملوا كل يوم أعمالاً مرهقة، فتتهدل أكتافهم بسبب ما يحملون من أثقال، وتجهد رقابهم وأذرعتهم وهم يراقبون البصل فى الصباح، ويرعون الكروم بعد الظهر، وأما الفلاحون فإنهم لا يغيرون ملابسهم، فتصبح رائحتهم نتنة كالجثث».

وسجل أحد الكتاب خطابًا لتلاميذه متألمًا من حال الفلاح المصرى فى ذلك الوقت قائلاً:

«ولقد سرق الدود نصف الحبوب، ثم أكل فرس النهر النصف الآخر، وهناك عدد لا يحصى من الفيران التى تسعى فوق الحقول، كما هبطت جحافل الجراد، والماشية تأكل هى الأخرى، والعصافير تسرق.

واحسرتاه على الفلاح.. فما بقى له من حبوب على أرض الجرن قد سرقها اللصوص، ونفقت ثيرانه من الدرس والحرث، بعد ذلك يصل جامع الضرائب وهدفه أن يتسلم المحصول، وقد حمل موظفوه عصيهم، فى حين أمسك الزنوج بمقارعهم، فإذا لم تكن هناك حبوب، ضربوه، وقيدوه، وقذفوا به فى الترعة ليغرق».

إلا أنه مع تقدم شأن البلاد، تغيرت نظرة الشعب وحكام البلاد لحرفة الزراعة، وللفلاحين، ونال الفلاح المصرى حقه من الاهتمام والتكريم، وسنت القوانين لإبعاد الظلم عنه، وإصلاح شأنه، وتأمين رزقه.

وفى خلال أشهر الفيضان - حيث يقل العمل الزراعى - يكون الفلاحون فى شبه بطالة، ولا يجدون ما يسدون به رمقهم، لذا عمل حكام البلاد على مساعدة هؤلاء بإشراكهم فى بناء المعابد مقابل ما يقتاتون به من خبز وجعة وبصل.

ويعتبر بناء الأهرامات أكثر الأعمال الإنشائية العظيمة التى بناها الفلاح المصرى القديم كنوع من العمل المقدس للملك الإله، فهى خدمة إلهية قدمها الفلاح بكل الحب والرضا، وليس بالسخرة، ومقابل ذلك وجد طعامًا وشرابًا كافيًا.

وبجانب انشغال الفلاح المصرى القديم فى الأعمال الزراعية، قدم نفسه وأولاده فداءً للوطن، وللدفاع عنها. فكان الجيش المصرى القديم - وكذلك الحديث - يعتمد فى تكوينه على الفلاحين المصريين. وتشجيعًا للانخراط فى سلك الجندية، منح الملك كل جندى نحو سبعة أفدنة معفاة من الضرائب لكل فلاح يجند فى الجيش، وتورث هذه الأرض لأبنائه القادرين على حمل السلاح. وفى زمن الحرب كان الجنود يتركون أراضيهم الزراعية تحت رعاية أسرهم، وهكذا تدور عجلة الإنتاج فى وقت السلم والحرب.

ولم يكن الفلاح المصرى القديم ذليلاً، يرضى بالظلم، بل كان أبيًا، يدافع عن نفسه إذا ما تعرض للنهب أو للسرقة بالإكراه، وهناك قصة شهيرة عن ذلك الفلاح الفصيح «خنوم - أنوب» من إقليم الفيوم، التى شاعت وأصبحت دليلاً على ما وصل إليه الفلاح المصرى القديم من فصاحة.

وترجع هـذه القصة إلى عـهد الدولـة الوسـطى (٢١٣٠ - ١٦٠٠ قبـل الميلاد)، حيث ألقى هذا الفـلاح تسـع شـكاوى مـن أبـدع وأروع مـا قيـل بسبب حادث ظلم وقع له. ومحور هذه الخطب مـدح العـدل، وذم دنـاءة الموظفين. إلا أن التعابير التى كانت تتدفق من فـم الشـاكى جعلتنـا نكـاد ننسى الغرض الذى قيلت من أجله.

وقد وقعت حوادث هذه القصة فى عهد الملك (نب كاو رع) أحد ملوك هراكليو بوليس (إهناس المدينة حاليًـا)، ويحمـل لقـب (خيتـى)، حيـث حكم البلاد فى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد.

وتتلخص القصة فى أن فلاحًـا مـن مقاطعـة الفيـوم - مـن إقليـم وادى النطرون - كان يسكن ببلدة تسـمى حقـل النطـرون. واتفـق أن وجـد هـذا الفلاح صوامع غلاله تكاد تكـون خاويـة، فحمّـل حمـيره نطرونًـا وملحًـا واتجه بها نحو سوق أهناس طلبًا للمبادلة بالغلال، وقد كان عليه أن يمر فى طريقه إلى العاصمة بمنزل «تحوتى نخت» أحد موظفى «رنزى» الذى كان يعمل مديرًا عظيمًا لبيت الملك.



شكل (١٦)
سوق مصرية قديمة

كان «تحوتى نخت» قد زرع أرضه كلها قمحًا حتى شاطئ النهر، ولم يترك منها إلا ممرًا ضيقًا لا يسير فيه غير شخص واحد بكل صعوبة، وعندما اقترب الفلاح «خنوم - أنوب» من حدود أرضه، قال «تحوتى - نخت» لأحد خدمه: «أسرع.. وأحضر لى قطعة قماش من البيت»، مدبرًا حيلة للاستيلاء على حمير «خنوم - أنوب» وما تحمله.

ذهب الخادم وعاد حاملاً ما طلب منه سيده، فأخذها منه «تحوتى - نخت» وفرشها على عرض الممر، وجعل طرفًا منها يلامس الزرع، والطرف الآخر بالقرب من ماء النهر، ثم اختفى خلف سيقان القمح وانتظر.

ولما دنا الفلاح بحميره من الأرض، سار كعادته بمحاذاة النهر دون أن يلاحظ أن على الأرض شيئًا، فداس - دون أن يقصد - على قطعة القماش. وهنا خرج «تحوتى - نخت» من مكمنه وسط سيقان القمح، وقال للفلاح محذرًا: «انظر إلى أين أنت ذاهب؟.. لا تدوس على قماشى»، فصدع الفلاح الطيب القلب للأمر، وأجابه قائلاً: «سأتبع رغبتك.. وسأتجنب إزعاجك».

ثم تقهقر الفلاح «خنوم - أنوب» بحميره، ولف بحذر واحتراس، وسار مخترقًا سيقان القمح، متفاديًا المرور على قطعة القماش، إلا أن ذلك الحل لم يرض «تحوتى - نخت» بطبيعة الحال، فصاح غاضبًا: «أتتجاسر على أن تدوس قمحى؟ ليس لك طريق من هنا!»، فرد عليه الفلاح قائلاً: «وما عساى أن أفعل إذًا؟، لقد سددت الطريق فى وجهى، ومنعتنى من المرور بوضعك هذا القماش فى طريقى.. ولم أقصد سوءًا.

وبينما هما فى هذا الجدل، أوغلت الحمير فى الحقل، وأكلت بعضًا من سنابل القمح، وهنا استشاط «تحوتى - نخت» غضبًا، وقبض على الحمير قائلاً: «سآخذ هذه الحمير مقابل ما أكلته من قمحى!».

ذهل الفلاح ورد قائلاً: «لم كل ذلك؟ إنك أغلقت الطريق فى وجهى، والآن تود أن تأخذ حميرى وما تحمله مقابل قليل من سنابل القمح!، إنك لن تجرؤ على إغتصاب حميرى، فإنى بأرض «رنزى» القاضى العادل الكبير، الذى يأخذ بالشدة والعدل من كل من يأتى شرًا، ويرتكب إثمًا، إنك تعرف أنى أتكلم حقًا، فلا تحدث نفسك بسرقة ما أملك وأنا فى حمى هذا النبيل، وإنى سأذهب إليه شاكيًا، وهو لا يرضى بذلك.

إلا أن «تخوتى - نخت» سخر من الفلاح، وأجابه: «هل تظن أنه يصغى إلى شكوى رجل مخبول مثلك ويهتم بها؟ سوف أحاسبك على ذلك. وأخذ «تخوتى - نخت» فرعًا من شجرة، وأوسع الفلاح المسكين ضربًا موجعًا، ترك فى بدنه جروحًا. ومكث الفلاح «خنوم - أنوب» أربعة أيام يرجو فيها إرجاع حميره وما تحمله دن جدوى.

ولما يئس الفلاح «خنوم - أنوب» من عودة حميره، ولى وجهه شطر المدينة قاصدًا بيت «رنزى» المدير العظيم لبيت الملك؛ ليشكو إليه ما حاق به من ظلم. ولحسن الحظ صادف الفلاح المدير العظيم وهو يخطو من عتبه داره متجهًا إلى النهر ليركب قاربه النيلى، فقال له الفلاح: «المجد لك يا سيدى.. مر أحد أتباعك بالإصغاء إلى مظلمتى».

وأمر القاضى أحد الكتبة أن يستمع لشكوى الفلاح، فأخبره بما وقع له من «تحوتى - نخت» من اغتصاب الحمير وما تحمله من ملح ونطرون، وضربه. وعند عودة «رنزى» أخبره الكاتب بما حدث من شكوى الفلاح.

وعرض المدير العظيم لبيت الملك تلك الشكوى على زملائه، موضحًا مدى تحامل الموظف على الفقير فى الدوائر الحكومية، مهما كان الحق فى جانبه. ومن العجيب أن زملاء المدير العظيم لبيت الملك قد انحازوا جميعًا إلى جانب الموظف «تحوتى - نخت»!.. وأجابوا بفتور عظيم بأن المسألة ربما كانت تنحصر فى أن هذا الفلاح قد دفع ما عليه من ضرائب بطريق الخطأ إلى رئيس غير رئيسه!، وأن «تحوتى - نخت» قد حصل على الضرائب المستحقة من الفلاح.. ثم تساءلوا فى غضب هل سيعاقب «تحوتى - نخت» من أجل قليل من النطرون والملح؟.. وهكذا تجاهلوا الحمير نفسها التى هى بيت القصيد.

عندئذ، أتى الفلاح «خنوم - أنوب» ليقدم مظلمته إلى مدير البيت العظيم «رنزى» فى تسع شكاوى متتالية، يقول فى شكواه الأولى:

يا مدير البيت العظيم.. يا سيدى.. يا عظيم العظماء..

يا حاكمًا على ما قد فنى وما لم يفن..

وإذا ذهبت إلى بحر العدل، وسحت عليه فى نسيم عليل، فإن الهواء لن يمزق شراعك، وقاربك لن يتباطأ، ولن يحدث لساريتك أى ضرر، ومرساك لن ينكسر، ولن يغوص قاربك حينما ترسو على

الأرض، ولن يحملك التيار بعيدًا، ولـن تـذوق أضـرار النـهر، ولـن ترى وجهًا ملتاعًا، والسمك القفاز سيأتى إليك، وسـتصل يـدك إلى أسمن طائر.

إنك أب لليتيم، وزوج للأرملة، وأخ للمهجورة، فتكـون حاكمًـا خاليًا من الشره، وشريفًا بعيدًا عن الدنايا، ومهلكًا للكذب، ومقيمًا للعدل، رجلاً يلبى نداء المستغيث.
إنى أتكلم.. فهل لك أن تسمع؟
أقم العدل أنت يا أيها الممدوح الذى يمدح من الممدوحين.
اكشف عنى الضر، انظر إلى.. إن حملـى ثقيـل، اختـبرنى.. إنـى ضعت.

وبعد أن سمع «زنزى» المدير العظيم للبيت شكوى الفلاح، ذهـب بـها إلى الملك، وقال: «سيدى.. لقد عثرت على أحـد هـؤلاء الفلاحـين، وفـى الحق إنه فصيح، وهو رجل قد سُرق متاعه، انظر.. لقد حضـر ليتظلـم لى من أجل ذلك».

عندئذ، قال جلاله الملك: «بقدر ما تحب أن ترانى فى صحــة، دعـه يتباطأ هنا دون أن تجيـب عـن أى شـىء قـد يقولـه، ولأجـل أن تجعلـه يستمر فى الكلام الزم أنت الصمت، ثم مره بأن يؤتى لنا بشكواه مكتوبة، ولكن مد زوجته وأطفاله بالمؤنة، بدلاً من أن يأتى أحد الفلاحين إلى مصر بسبب فقر بيته. وزيادة على ذلك مد هـذا الفـلاح نفسـه بالطعـام دون أن يعلم أنك أنت الذى أعطيته إياه». وبناءً على أمر الملك أعط الفلاح عشـرة أرغفة، وإبريقين من الجعة كل يوم.

وقد تعوّد مدير البيت العظيم «رنزى» أن يعطى تلك الأشـياء إلى أحـد أصدقائه، وكان هذا يعطيـها للفـلاح «خنـوم – أنـوب»، كما أرسـل إلى شيخ بلدته ثلاثة مكاييل من القمح كل يوم ليصنـع طعامًا لزوجـة الفـلاح وأبنائه.

ولما لم تستجب الشكوى الأولى، تقدم الفـلاح للشكوى مـرة أخـرى، وقال:

يا أيها المدير العظيم للبيت الملكى.. يا سيدى..
يا عظيم العظماء.. يا أغنى الأغنياء..
يا من عظماؤه لهم واحد أعظم منهم..
يا من أغنياؤه لهم واحد أغنى منهم..
أنت يا سكان السماء.. ومثقـال مـيزان الأرض.. ويـا خيـط المـيزان الذى يحمل الثقل.. يا أيها السكان لا تنحرف.. ويا مثقال المـيزان لا تتحول.. ويا خيط الميزان لا تتذبذب.
إن السيد العظيم يأخذ (فقط) مما ليـس لـه مـالك، وينـهب واحـد (فقط).
إن أودك فى بيتك.. قدحًا من الجعة وثلاثة أرغفة..
وما الذى يمكن أن تعرفه لإطعام عملائك؟
إن الإنسان سيموت مع خدمه، فهل ستكون رجلاً مخلدًا؟
أليس من الخطـأ مـيزان يميـل.. وثقـل ينحـرف.. ورجـل مسـتقيم يصير معوجًا؟!

تأمل.. إن العدل يفلت من تحتك وذلك لأنه أقصى عن مكانه..

فالحكام يشاغبون، وقاعدة الكلام تنحاز إلى جانب،

والقضاة يتخاطفون ما اغتصبه.

وسأل المدير العظيم للبيت «رنـزى» الفـلاح الشـاكى: هـل تعتقـد فـى قلبك أن ممتلكاتك أمر أهم من أن يقصيك خادمى؟

فرد عليه الفلاح قائلا:

إن كيال أكوام الغلال يعمل لمصلحته الشخصية..

وذلك الذى يجب عليه أن يقدم حســابه تامًا.. يجـور علـى متـاع غيره..

وذلك الذى يجب عليه أن يحكم بمقتضى القانون.. يأمر بالسرقة..

فمن ذا الذى يكبح الباطل؟

وذلك الذى يجب عليه أن يقضى على الفقر.. يعمل بالعكس..

ويسير الإنسان إلى الأمام فى الطريق المستقيم بوساطة منحنيات..

وآخر ينال الشهرة بالإضرار..

فهل تجد لنفسك هنا أى شىء؟

ويستكمل الفلاح شكواه قائلاً:

إن إصلاح الخطأ قصير.. ولكن الضرر طويل..

والعمل الطيب يعود ثانية إلى مكانه بالأمس..

والواقع أن الحكمة تقول «عامل الناس بما تحب أن تعامل به»، وذلك كشكر إنسان على ما يعمله، وكمنع شيء قبل تشكيله، مع أن الأمر قد أعطى للصانع.

ثم يرهب الفلاح الأمير، متمنيًا له الشر إذا لم يحكم بالعدل، ويقول:

ليت لحظة تخرب.. فتجعل أعنابك رأسًا على عقب..

وتفتك بدواجنك.. وتؤدى بطيورك المائية

فالمبصر قد غشى بصره.. والمستمع قد صم..

وذلك الذى كان يجب أن يكون مرشدًا.. أصبح مضللاً.

تأمل.. إنك قوى شديد البأس..

وإنك نشيط الساعد..

وقلبك مفترس.. وقد تختطك الرحمة..

ما مقدار حزن الرجل الفقير الذى قضى عليه بجوارك؟

ومثلك كرسول التمساح.. بل أنت تفوق الإلهة «سخمت» ربة الوباء.

فإذا كنت لا تملك شيئا.. فهى لا تملك شيئًا كذلك..

وإذا كانت لا تدين بشيء فكذلك أنت لا تدين بشيء..

وإذا كنت لا ترتكبها.. فهى لا ترتكبها كذلك.

وذلك الذى يملك خبزًا يجب أن يكون رحيمًا..

وإن كان المجرم فظًا.. على أن السرقات أمر طبعى لمن لا متاع له..

وكذلك خطف المجرمين لأمتعة الغير..

حقًا.. إنه عمل مشين.. إلا أنه لا مندوحة عنه..

ويجب على الإنسان ألا يصوب اللوم إليه لأنه يبحث لنفسه..

على أنك قد غصصت بخبزك.. وسكرت بجعتك.. إنك غنى.

إن وجه مدير السكان متجه إلى الأمام..

ومع ذلك فإن القارب يتجه كما يشاء..

فالملل فى داخل قصره..

والدفة فى يدك.. ومع ذلك فإن المشاغبات منتشرة فى جوارك.

إن عمل الشاكى طويل.. والفصل فيه يسير ببطء..

ويتساءل الناس: ما معنى ذلك الرجل الذى هناك؟

كن معينًا.. حتى تظهر قيمتك واضحة.

تأمل.. إن مسكنك قد أصبح موبوءًا..

اجعل لسانك يتجه إلى الحق.. ولا تضل..

وإن لسان الرجل قد يكون سبب تلفه.

لا تقل الكذب.. واحترس من الموظفين..

إن قول الكذب نباتهم.. ومن المحتمل أن يكون خفيفًا فى قلوبهم

وأنت يا أكثر الناس علمًا.. هل تريد أن تعرف شيئًا عن أحوالى؟

وأنت يا من تقضى حوائج الماء.

تأمل.. فإنى أملك مجرى ماء من غير سفينة..

وأنت يا مرشد كل غارق إلى البر

نج من غرقت سفينته.. نجني.

ولما لم يستجب للفلاح الشاكى شكواه، حضر مرة ثالثة ليشكو قائلاً:

يا أيها المدير العظيم للبيت.. يا سيدى..

إنك (رع) رب السماء فى صحبة حاشيتك..

إن أقوام بنى الإنسان منك لأنك كالفيضان..

وأنت كإله النيل الذى يخلق المراعى الخضراء.. ويمد الأراضى القاحلة..

ضيق الخناق على السرقة.. وارحم الفقير..

ولا تكون كالسيل ضد الشاكى..

واحذر من قرب الآخرة.

ارغب فى أن تعيش طويلاً كما يقول المثل «إن إقامة العدل هو نَفَس الأنف».

عاقب من يستحق العقاب.. وليس هناك شىء يماثل الاستقامة.

هل الميزان يتحول؟ وهل يميل لسانه إلى جهة ما؟

وهل يظهر (تحوت) تساهلاً؟

فإذا كان الأمر كذلك، فيمكنك أن ترتكب أضرارًا.

واجعل نفسك معادلاً لهذه الثلاثة..

فإذا أظهرت الثلاثة تساهلاً.. فكن متساهلاً..

ولا تجب على الخير بالشر.. ولا تضعن شيئًا مكان آخر.

كيف ينمو الكلام أكثر من عشب خبيث.. أكثر مما يتفـق مـع مـن يشمه

وعلى ذلك تروى المتاعب.. وينمو عليها غطاء..

وقد كان لديه ثلاث فرص تحمله على أن يعمل.

قد الدفة على حسب الشراع..

وصد الفيضان على حسب ما يقتضيه العدل..

واحترس أن تصطدم على الشاطئ مع حبل السكان..

وإن أصدق وزن للبلاد هو إقامة العدل..

ولا تكذبن وأنت عظيم..

ولا تكونن خفيفًا وأنت رزين..

ولا تقولن الكذب فإنك الميزان..

ولا تنكمش.. فإنك الاستقامة.

انظر.. إنك على مستوى واحد مع الميزان.. فإذا انقلبت انقلب أيضًا..

لا تحيدن.. بل أدر السكان.. واقبض على حبل الدفة..

لا تغتصبن.. بل اعمل ضد المغتصب..

وذلك العظيم ليس عظيمًا مادام جشعًا.

إن لسانك هو ثقل الميزان..

وقلبك هو ما يوزن به..
وشفتاك هما ذراعاه..
فإذا سترت وجهك أمام الشرس، فمن ذا الذى يكبح الشر؟
تأمل.. إنك غسال يائس.. وشخص جشع لإتلاف صاحبه، يهجر شريكه من أجل عميله..
تأمل.. إنك نوتى تعبر بمن معه الأجر، ورجل مستقيم فى معاملته، ولكن تلك الاستقامة أصبحت مذبذبة..
تأمل.. إنك رئيس مخابز لا يسمح لأحد خلو (مفلس) أن يمر إهمالاً..
تأمل.. إنك صقر لعامة القوم.. يعيش على أحقر الطيور ..
تأمل.. إنك مورد سرورة الذبح.. إذ لا يوقع عليه التقطيع..
تأمل.. إنك راع.. يجب عليك أن تظهر شراهة أقل من تمساح جائع.
أنت.. يا أيها السامع.. إنك لا تصغى.. ولماذا لا تصغى؟
واليوم قد كبحت جماح المتوحشين، وتقهقر التمساح..

وما الفائدة التى تعود عليك وقد وجد سر الصدق.. وسقط ظهر الكذب على الأرض.. ولكن لا تتجهز للغد قبل أن يأتى.. لأن الإنسان لا يعلم المتاعب التى ستواجهه.

وقد قال الفلاح «خنوم أنوب» هذا الكلام إلى المدير العظيم للبيت «رنزى» عند مدخل قاعة المحكمة، ثم أمر «رنزى» حاجبين أن يضرباه بالسياط، فضرب على كل جسمه، عندئذ قال الفلاح:

إن «رنزى» لا يزال مستمرًا فى غيه..

وإن حواسه قد عميت عما ينظر..

وصمت عما يسمع..

وقد ضل عما ينسب إليه..

انظر.. إن مثلك كمثل بلد لا عميد لها.. أو طائفة لا رئيس لها..

أو كسفينة لا ربان لها.. أو كعصابة أشقياء لا مرشد لها.

انظر.. إنك حاكم يسرق.. وعميد قرية يقبل الرشوة..

ومفتش إقليم كان يجب عليه أن يقطع دابر التخريب.. لكنه أصبح نموذجًا للمجرم.

واستمرت شكوى الفلاح بعد ذلك حينما تصادف وقابل مدير البيت العظيم «رنزى» خارجًا من معبد «أرسافيس» إله مقاطعة إهناس، فقال له:

أنت أيها الممدوح.. ليت «أرسافيس» الذى تخرج من معبده يمدحك..

لقد قضى على الخير.. وليس له اندماج حقًا.. وقد ألقى الكذب على الأرض..

هل أحضر قارب التعدية إلى البر؟

بماذا إذًا للإنسان أن يعبر؟

على أن هذا العمل لابد أن ينفذ كرهًا !

وهل عبور النهر بالنعال طريقة حسنة؟ لا ..

ومن ذا الذى يتمنى أن ينام الآن حتى مطلع الفجر ؟

لقد قضى على السير ليلاً ، والسياحة نهارًا ، والسماح للإنسان أن يتعهد قضيته الحقة.

انظر: إنه لا فائدة لمن يقول لك: إن الرحمة قد تخطتك، فما أعظم حزن الرجل الفقير الذى قد ضرب بسببك..

انظر: إنك صياد يشفى غليله، وإنسان منغمس فى إرضاء ملذاته.. فيصيد جاموس البحر، ويخترق (نبله) الثور الوحشى، ويضرب السمك.. ويرمى شباكه للطيور.

على أنه لا يوجد إنسان متسرع فى كلامه يخلو من العثار..

وليس هناك شخص خفيف القلب يقدر أن يكون حازمًا فى كبح شهواته.

كن صبورًا .. حتى يمكنك أن تصل إلى العدل.

اكبح جماح اختيارك .. حتى أن الشخص الذى تعود أن يدخل بسكون يمكنه أن يكون سعيدًا، على أنه لا يوجد إنسان طائش يجيد عملاً..

ولا متسرع تطلب مساعدته.

اجعل عينيك تتأملان.. وعلم قلبك ..

ولا تكونن شديدًا بمقدار قوتك خوفًا أن يحيق بك مكروه.

الذى يأكل هو الذى يتذوق ..

والذى يخاطب يجيب..

والنائم يرى الحلم .. أما القاضى الذى تجب معاقبته فإنه يكون نموذجًا للمجرم.

تأمل .. أيها الأحمق .. فإنك قد ضربت ..

تأمل .. أيها المغفل .. فإنك سئلت..

وأنت يا نازح الماء تأمل .. فإنك قد دفنت ..

وأنت يا مدير السكان .. لا تجعل قاربك يرتطم ..

وأنت يا معطى الحياة .. لا تود بأحد ..

ويا مخربًا .. لا تسبب خراب أحد..

ويا أيها الغنى .. لا تكونن كحرارة الشمس ..

ويا أيتها الحمى .. لا تجعلن التمساح يفترس ..

والآن .. هل سأقضى اليوم فى الشكوى الرابعة ؟

واستمر الفلاح فى شكواه حتى بلغت تسع شكاوى، لعل أبلغها ما قاله فى الشكوى الثامنة :

يا سيدى ..

إن الناس يتحملون السقوط بسبب الطمع ..

والرجل المغتال يعوزه النجاح.. ولكنه ينجح فى الخيبة..

إنك جشع .. وذلك لا يتفق معك ..

إنك تسرق .. وذلك لا يليق بك ..

أنت يا من يسمح للإنسان بأن تشرف على قضيته الحقة..

وذلك لأن ما يقيم أودك فى بيتك..

ولأن جوفك قد ملىء ..

ولأن مكيال القمح قد طفح .. فإذا هز طفح وضاع على الأرض.

آه .. أنت يا من يجب عليه أن يقبض على اللص ..

ويا من يبعد الحكام وقد نصبوا ليدرءوا السوء.. وهم حمى العوز..

والحكام قد نصبوا ليقضوا على الكذب ..

وليس الخوف منك هو الذى يجعلنى أشكو إليك..

إنك لا تبصر ما فى قلبى..

وإنه لإنسان صامت من يجعله يرتد دائمًا عن توبيخك ..

ولا يخاف ممن يطالبه بحقوقه ..

وإن أخاه لا يؤتى به إليك من قارعة الطريق.

إنك تملك قطعة أرضك فى الريف ..

ومكافأتك فى ضياع الملك ..

وخبزك فى المخبز .. والحكام يعطونك .. ومع ذلك تغتصب !

هل أنت لص ؟ هــل يؤتــى لـك بجنـود لتصـاحبك عنـد تقسـيم قطـع الأرض؟

أقم العدل لرب العدل.. الذى أصبحت عدالته موجودة..

أنت يا أيها القلم ..

وأنت يا أيتها البردية ..

ويا أيتها الدواة .. ويا (تحوت) .. ابتعدوا عن عمل السوء .

وعندما يكون الحق حقًا .. فهو إذن حق .. لأن العدل أبدى..

ويذهب مع من يعمله إلى القبر ..

وسيدفن وتطويه الأرض ..

أما اسمه فلن يمحى من الأرض ، بل سيذكر بسبب الحق ..

وهكذا عدل الله فى كلمته ..

هل هو ميزان ؟ إنه لا يميل ..

هل هو لسان الميزان ؟ إنه لا يحيد إلى جانب (لا يزن غشًا)..

وإذا حضرت أو حضر غيرى فأجبه ..

ولا تجبن كإنسان يخاطب رجلاً صامتًـا .. أو كإنسـان يـهاجم مـن لا يمكنه أن يدافع.

إنك لا تظهر الرحمة ..

إنك لا ترق ..

إنك لا تغنى .. ولا تعطى مكافأة على تلك الخطب التى تخرج من فم (رع) نفسه.

انطق بالعدل .. وأقم العدل لأنه عظيم وكبير .. ويعيش طويلاً.. والاعتماد عليه يؤدى إلى العمر الطويل المحترم.

هل الميزان يحيد ؟

فإذا كان الأمر كذلك فإنه يكون بسبب كفتيه اللتين تحملان الأشياء..

ولا يجوز بخس فى العدل ..

وإن العمل الحقير لا يصل إلى المدينة ، على أن أصغر الأشياء ستصل إلى الريف.

وانتهت قصة الفلاح المصرى الفصيح بنهاية سعيدة له، حيث ثبت تحقيق الشكوى صدقها، ونال الموظف الجشع (تحوتى - نخت) جزاء ظلمه للفلاح، وضرب ضربًا مؤلمًا ، وصودرت أملاكه - بما فيها الحمير وما تحمله من نطرون وملح - وأنعم بها الملك على ذلك الفلاح (خنوم أنوب).

والآن .. ألا ترى أن شكوى ذلك الفلاح المصرى الفصيح تصلح فى أزمنة أخرى كثيرة؟. حتى فى زماننا نحن أحفاده بعد مرور آلاف السنين؟

٤ القرية المصرية .. أم الدنيا

يعتبر العصر الحجرى الحديث هو العصر الحقيقى الذى نشأت فيه القرى المصرية التى كانت تتناثر على المرتفعات البسيطة الارتفاع على حافة نهر النيل. وكان الجزء الخصيب منه – فى ذلك الوقت – أقل انخفاضًا واتساعًا عما عليه الآن، بعد أن غمره طمى الفيضان عامًا بعد عام لمدة اثنى عشر ألف سنة على وجوه التقريب.

ولقد غطى الطمى بطبقاته السميكة هذه عبر آلاف السنين تلك القرى البدائية التى عاش فيها الفلاح المصرى القديم خلال هذه العصور الموغلة فى القدم، وما بقى منها يحكى لنا عن تلك الفترة من بداية تكوين القرية المصرية، كما هو الحال فى قرية العمرى (رأس حوف) القريبة من القاهرة، ومرمدة بنى سلامة الواقعة على حافة الدلتا الغربية، وقريتى ديمة، وكوم أوشيم الواقعتين فى محافظة الفيوم.

وتميزت تلك القرى المصرية القديمة بأن إنسان ذلك العصر تحول نشاطه من الصيد إلى الرعى وفلاحة الأرض، مما أدى إلى استقراره بجوار النهر، وحول روافده وبحيراته، وأخذ يسكن القرى بعد أن كان متجولاً من مكان إلى آخر. وكان السبب الحاسم فى ذلك يرجع إلى تغير المناخ،

واختفاء النباتات والأشجار التى كانت تنمو على الهضاب مترامية الأطراف، فقلت مناطق الصيد.

وتنبهت القبائل التى كانت تعيش فى تلك القرى إلى خطر المجاعة، فبدأت تربى بعض الحيوانات المفيدة، مثل الثيران والخراف والماعز والخنازير لتكون ذخيرة لهم من اللحوم الحية، وكذلك أخذت القبائل تزرع بعض الحبوب المغذية خاصة الشعير.

ولما ازداد جفاف تلك الهضاب الشاسعة، أخذ أفراد القبائل يجتمعون فى قرى فى وسط أراضيهم الزراعية التى يتعيشون منها، سواء بزراعتها، أو برعى الماشية. وعلى الرغم من التحول التدريجى لأفراد تلك القرى إلى فلاحين ورعاة، إلا أن حرفة الصيد والقنص كانت لا تزال تجرى فى عروقهم، سواء صيد البر أو البحر، وكان ذلك مصدرًا إضافيًا للحوم، واقتصادًا لمواشيهم، وأيضًا للتخلص من بعض الحيوانات البرية المؤذية التى كانت تهدد مزروعاتهم، بل وحياتهم فى كثير من الأحيان، مثل جاموس البحر.

ومع مرور الوقت ، تحولت هذه القبائل إلى أهل فلاحة بالمعنى الحقيقى، وكانت القرى مؤلفة من عدد من الأكواخ المنفصلة ، المتباعدة عن بعضها البعض، ومن المحتمل أنها كانت مسورة بسياج يتكون من أوتاد خشبية حماية لها. وكان هذا الكوخ ضروريًا لحياة الفلاح المصرى القديم، حيث كان يعيش فيه ويطهى به طعامه، كما كان مخزنًا لأدوات الزراعة مثل الفأس والمنجل.

وكان الكوخ يتركب من جدران مصنوعة من الغاب، يحفظها من التداعى أوتاد مثبتة فى الأرض، وكذلك من بعض الخامات المحلية المتوفرة، مثل سيقان الذرة الرفيعة، وجذوع وأغصان الأشجار، بينما صنع سقف الكوخ من أغصان الأشجار وأوراقها، ومن سيقان الغاب ، وجريد النخيل. وكانت تترك فتحة فى السقف لتصريف دخان نيران الطهى، ولتجديد الهواء، وللسماح لضوء الشمس بالدخول وإنارة الكوخ.

ولقد وجدت بعض الأكواخ وقد كسيت جدرانها بطبقة من الطين. وربما كان ذلك بداية لاستخدام الفلاح المصرى القديم كتل الطين، وبعد ذلك قوالب الطين النيىء (اللبن) فى بناء المنازل فى العصور التالية.

ولوحظ فى بناء هذه الأكواخ أنها كانت تأخذ – غالبًا – شكلاً بيضاويًا، وإن كانت هناك أكواخ أخرى أخذت الشكل المستدير، أو المستطيل، وكذلك شوهدت بعض الأكواخ التى كانت تأخذ شكل ستارة مقوسة محكمة القفل تبنى فى الجهة التى يهب منها الريح، وخاصة الجهة الجنوبية الغربية أو الجهة الشمالية.. ولا شك فى أن وجود مواقد فى مثل هذه الأكواخ، وكذلك وجود آنية فخارية يدل على أن الفلاح المصرى القديم كان يسكن تلك الأكواخ البدائية.

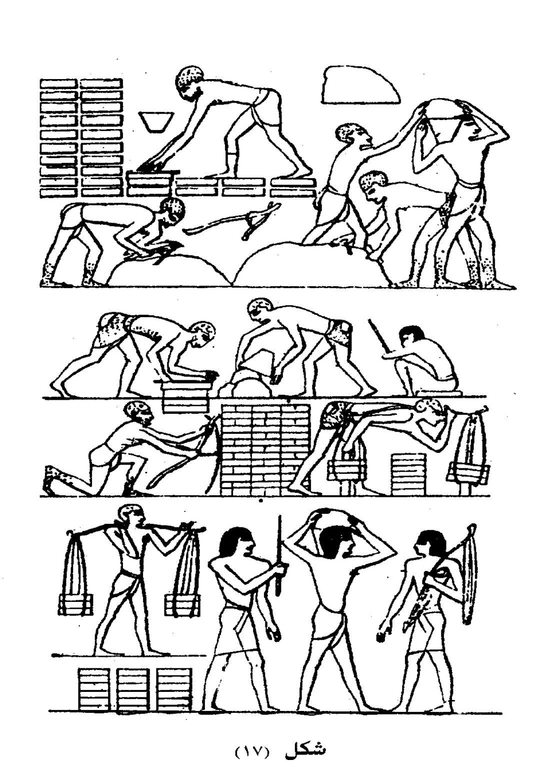
وفى العصور التالية شوهدت منازل مبنية من كتل الطين اللزج، مثل مساكن قرية (مرمدة بنى سلامة) فى غرب الدلتا، ثم استعملت قوالب الطين النيىء (اللبن) ذات الشكل المنتظم فى بناء المنازل منذ حضارة نقادة الثانية فى عصر ما قبل الأسرات، بجانب وجود الأكواخ السابقة نظرًا

لأن كلا منهما له وظيفة وغرض، وأيضًا تبعًا لقدرة الفلاح على بناء مسكنه.

ولقد عثر بالقرب من هذه الأكواخ على مبانٍ بيضية الشكل، لا تزيد مساحتها عن متر ونصف متر تقريبًا، ذات جدار منخفض لا يزيد ارتفاعه عن نصف متر. ويعتقد أن تلك المبانى كانت تستخدم كصوامع بدائية لتخزين الحبوب، خاصة وأنها كانت تبنى من كتل الطين اللزج.

ومنذ بداية عصر الأسرات ، كان الفلاح المصرى القديم يبنى مسكنه من نفس الخامات السابقة، وكان عبارة عن مأوى بسيط يتكون من أربعة حوائط، وسقف، وباب مفتوح قد يغطى بستارة من حصير الغاب لستر ما بداخله. وفى العصور التالية أضيفت حجرة أو حجرتان إلى المسكن، وبذلك أصبح متعدد الغرف، ذو سقف مسطح يمكن الصعود إليه بواسطة سلم دائم أو مؤقت.

وكان الطين يستخدم فى البناء على هيئة كتل سميكة لزجة، أو قد يقطع فى شكل قوالب منتظمة. ويتم تجهيز هذه القوالب عن طريق خلط الطين اللزج بالتبن، ثم تقطع العجينة المتكونة وتصب فى قوالب خشبية، وتترك فى الهواء تحت أشعة الشمس حتى تجف، وتستخدم بعد ذلك فى البناء (شكل ١٧)، وهى نفس الطريقة التى يصنع بها الطوب النيىء حاليًا، والتى عند حرقه فى القمائن يتحول إلى الطوب الأحمر الذى يسود استخدامه فى البناء.



شكل (١٧)

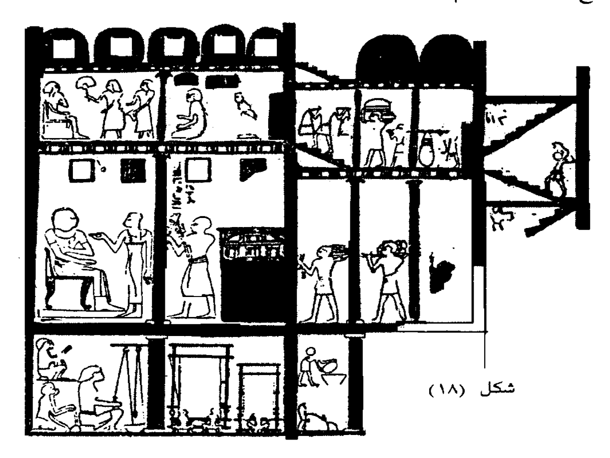
ويبدو أن غرف تلك المنازل كانت تطلى أحيانًا بالجير الأبيض، ويرسم عليها مناظر ملونة للزراعة والصيد ورحلات الحج المقدسة إلى (أبيدوس) فى جنوب الوادى لزيارة الإله (أوزيريس) إله الزراعة والخضرة والبعث.

أما بيوت الفلاحين متيسرى الحال فإنها كانت تبنى من عدة طوابق عادة، تعلوها صوامع للحبوب، وتخصص غرف الطابق الأرضى للطهى وتناول الطعام، وغزل الخيوط ونسجها على الأنوال الخشبية، بينما تكون غرف الطابق العلوى واسعة، تطلى أيضًا بالجير الأبيض، ذات نقوش على جدرانها، ولها نوافذ ضيقة، وهى مخصصة للنوم (شكل ١٨).

وكانت أسطح هذه المنازل مسطحة، يمكن الصعود إليها بدرجات سلم خشبى، وحول السطح سورٌ خشبىٌ حماية للأطفال من السقوط، وتجنبًا لنظرات الجيران المتطفلة إليهم. ويوجد خلف المنزل فناء تزرع به بعض الأشجار والخضراوات، وحظيرة للماشية والأغنام، وزريبة للحمير التى كانت تعتبر وسيلة المواصلات الوحيدة فى ذلك الوقت، وحتى الوقت الحالى ما زالت هذه الحمير وسيلة مناسبة للسير فى قرى مصر وحقولها المترامية الأطراف.

ولم تكن منازل الفلاحين شديدة التقارب ، ولكنها كانت متباعدة ، يفصلها عن بعضها نخل وأشجار، خاصة الجميز والرمان والدوم. وما زالت منازل الفلاحين فى كثير من القرى المصرية شديدة الشبه بمنازل

الفلاح المصرى القديم، سواء مـن ناحيـة مـواد البنـاء، أو شـكلها، حتـى وجود المصطبة أمام المنازل لاستقبال الضيـوف كـانت موجـودة فـى مـنزل الفلاح المصرى القديم.



شكل (١٨)

ولقـد اعتنـى سـاكنى هـذه المنـازل بنظافتـها ، وحمايتـها مـن غـزو الحشـرات والفـئران والأبـراص والثعـابين والطيـور الجارحـة، ولكـن فـى أسلوب يغلب عليه الخرافات، التى ما زالت تجد لها جذورًا فـى القريـة المصرية الحديثة.

فعلى سبيل المثال ، ذكرت فى بردية (إيبرس Ebers) الطبية وصفات للتخلص من أعداء الراحة المنزلية، منها استخدام ملح النطرون أو بذور البصل لطرد الثعابين من المنزل، ودهن الطيور لطرد الذباب، وبويضات السمك ضد البراغيث، ودهن القطط لطرد الفئران، وروث الغزلان المحروق للتخلص من الحشرات القارضة فى حبوب القمح والشعير المخزنة فى الصوامع !

وكانت هناك وصفة مؤكدة (!) لمنع الحدأة من خطف صغار الطيور، وذلك بزراعة فرع من شجرة اللبخ فى الفناء.. وتوضع بجانبه كعكة.. ثم يتلى عليها التعويذة التالية :

(كانت حدأة تخطف من المدينة ومن الريف ..

طيرى .. اطبخيها .. ثم كليها..)

واهتم الفلاح المصرى القديم بأثاث منزله، فكان يفرش الأرضية بالحصير، وقد يوجد سرير ومقاعد من الخشب، وحمالة للجرار الفخارية (تشبه القلل والأزيار التى تنتشر حاليًا فى ريف مصر) التى تحتوى على الماء البارد، وذلك تبعًا لمدى ثراء صاحب الدار.

وبالإضافة إلى ما سبق ، كان مجرش طحن الحبوب — أو الهاون — من أهم أدوات الطهى، بالإضافة إلى القدور والأطباق الفخارية. وكان الطعام يوضع على حصير مصنوع من أعواد الغاب، أو على موائد خشبية ذات أرجل قصيرة ما زالت تستخدم فى القرى حتى الآن، ويطلق عليها اسم (طبلية).

وخصص الفلاح المصرى القديم مكانًا أمام منزله لاستقبال الضيوف، بنى فيه مصاطب حجرية مرتفعة قليلاً عن الأرض، وفرش عليها حصيرا، وعادة ما كان يستعمل قنديلاً فخاريًا مملوءًا بزيت الخروع لإنارة مدخل المنزل.

ولم تختلف منازل أثرياء الفلاحين القدماء كثيرًا عن بسطائهم، فالمقاعد الخشبية المريحة كانت تتناثر أكثر فى المنزل، ربما تكون أكثر فخامة وذات مسند كبير، وهناك مزيد من الأوانى الفخارية للمائدة وللطهى، وبعض هذه الأوانى مصنوع من الحجر، وكانت حجرات النوم مزودة بأسرة خشبية كبيرة، وقد يوجد بها صناديق خشبية لحفظ الملابس، كما استعمل البخور فى تنقية الهواء وإكسابه رائحة عطرة.

وعلى أية حال، فسواء كانت الدار فسيحة أم صغيرة، وسواء أكانت مؤثثة بأفخر الرياش، أو كانت تحوى حصيرة بسيطة من فروع الغاب، فلقد كان لكل رب أسرة من الفلاحين القدماء منزله الخاص.

وكانت موائد هؤلاء الفلاحين القدماء - خاصة الأثرياء منهم - عامرة بأنواع اللحوم المختلفة، خاصة لحوم الثيران، سواء صغيرة العمر (العجول)، أو تلك الكبيرة ذات القرون الطويلة والأجسام الضخمة، بالإضافة إلى لحوم الحيوانات البرية التى يتم صيدها من الصحراء المتاخمة للحقول، مثل الماعز البرى والغزلان والوعول.

واعتبرت الطيور المائية - التى كانت تصطاد حية من أدغال المستنقعات - مصدرًا هامًا لغذاء الفلاح المصرى القديم، مثال ذلك طيور

الأوز والبشاروش والكراكى، بينما لم يعرف الفلاح - فى ذلـك الوقت - طيورًا مألوفة لدينا الآن مثل الدجاج. وكانت الطيور التى يتم صيدها تلقم بالحبوب المبللة لعدة أيام، حتى تسمن ويزداد وزنها ثم تذبح بعد ذلـك، تمامًا كما يفعل فلاحو اليوم (شكلى ١٩ و ٢٠).



شكل رقم (١٩) : فلاحون يلقمون البجع، بينما يعـد فلاحـان بـأعلى الرسم طعامًا للطيور

شكل رقم (٢٠) : فلاح يلقم أوزا.

ووفرت الأسماك غذاءً شهيًا على موائد الفلاح المصـرى القديـم، وكـان مصدرها مياه النيل وفروعه، ومياه المستنقعات القريبة من الحقول، حيث اتبع فـى صيدهـا طريقـة الشـبـاك المألوفـة لدينـا الآن (شـكل ٢١)، وأيضًا لنفس الأسماك النيليـة مثل البلطـى والبـورى والبيـاض والشـيلان والقراميط.



شكل (٢١)

وكان الفلاح المصرى القديم – والحديث أيضًا – محبًا لتناول الأنواع المختلفة من الخضراوات، كالبصل والكرات والثوم والخيار، بالإضافة إلى الفول والبازلاء والخس. ولقد زرع الخس بوفرة فى الحدائق المنزلية، حيث كان النبات الخاص بالإله (مين Min) إله التناسل، نظرًا لأن الخس يجعل الرجال شبقين، والنساء خصيبات، ولذا كانت تستهلك منه كميات كبيرة على موائد المصريين القدماء، ومازال الخس – وكذلك الجرجير – يجدان قبولاً عظيمًا لدى الفلاحين المصريين المحدثين، ولنفس الغرض.

ولم يتوفر للمصرى القديم أنواعٌ متعددة من الفاكهة، ففى الوقت الذى عرف فيه العنب والتين والبلح والجميز والنبق، عرف أيضًا البطيخ والشمام وهما من أنواع الخضر حلوة المذاق، إلا أنه لم يعرف البرتقال

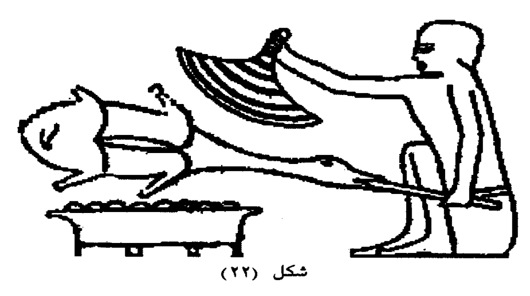
ولا الليمون ولا الموز، ولم يعرف الرمان والتفاح إلا فى عهد الهكسوس الذين حكموا مصر من نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد، وعرف الكمثرى والخوخ واللوز والكريز فى عهد الرومان قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثين عامًا.

كما عرف المصريون القدماء اللبن ومنتجاته، مثل القشدة والزبد والجبن، وكذلك عسل النحل، وكانوا يستعملون مسحوق الخروب والعسل فى تحلية الأطعمة والمشروبات.

وبرعت الفلاحة المصرية القديمة فى طهى الطعام، على الرغم من استعمالها لأدوات طهى بسيطة، مثل الموقد الفخارى، حيث استعمل الحطب والخشب كوقود، وبعض الأوانى الفخارية مثل الدلاء والأباريق. وكانت السلال والأسبتة المصنوعة من الحبال والجريد تستعمل فى نقل وتخزين المواد الغذائية. وعلى الرغم من عدم وجود نصوص توضح لنا طرق الطهى على الطريقة المصرية القديمة، إلا أنه يمكن لنا أن نستنتج أن الفلاحة المصرية - كعهدها دائمًا - كانت تجيد الطهى، وإن كانت لا (تسبك) طهى الخضراوات بصلصة الطماطم، لأن الطماطم لم تكن معروفة لها فى ذلك الوقت.

فعلى سبيل المثال، كان المصريون القدماء يفضلون تناول الأوز مشويًا، حيث يتم نزع ريش الأوزة - أو البطة - وتقطع رأسها وأطراف جناحيها ورجليها، ثم يمرر من خلال فمها عود من الخشب، وتوضع فوق موقد

الفحم المشتعل، ويستمر الشوى على نار هادئة مع التهوية على الفحم بمروحة لدفع مزيد من الهواء (شكل ٢٢)، كما يفعل (كبابجى) هذه الأيام.



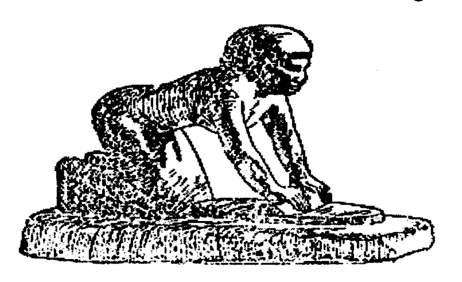
شكل (٢٢)

وفى وصف للمؤرخ هيرودوت يقول: «كان المصريون القدماء يأكلون بعض أنواع الأسماك المجففة تحت أشعة الشمس، وأنواعًا أخرى مملحة (تشبه الفسيخ)، كما كانوا يملحون بعض الطيور كالبط والسمان والعصافير، وإن كان ذلك غير مألوف لنا الآن.

وكان الخبز على قمة أطعمة الفلاح المصرى القديم، وفى الوقت الذى عرف فيه هذا الفلاح نحو ١٥ صنفًا مختلفًا من الخبز والفطائر فى عصر الدولة القديمة، زاد عدد هذه الأصناف فى عصر الدولة الفرعونية الحديثة إلى نحو أربعين صنفًا، وذلك تبعًا لنوع الدقيق المستخدم، وطريقة الخبز، وشكل الأرغفة أو الفطائر المخبوزة، وكيفية الإنضاج فى الفرن، والمواد

الإضافية التى تضاف للعجين، مثل العسل والدهن أو الزبـد، والفاكهـة، والبيض.

ولقد صنع الخبز والفطير من دقيق القمح أو الشعير أو الأذرة الرفيعـة، حيث كانت تطحن الحبوب يوميًا لتجـهيز الدقيـق أولاً بـأول، وتنخـل، ويخلط الدقيق الناعم بالماء ويعجن، وتترك لفترة حتى تتخمر، ثم تحمـى أطباق من الفخار على النار حتى تسخن، وتصب فيها العجينة، فينضـج الخبز من الخارج، بينما يظل قلبه طريًا.

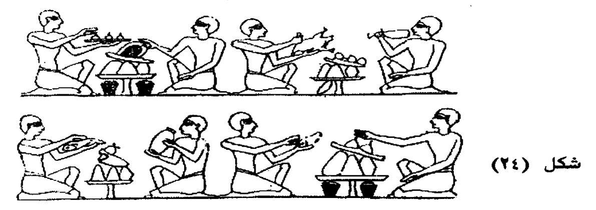


شكل (٢٣) فلاحة تطحن الحبوب.

ومن الخبز صنع الفـلاح المصـرى القديـم الجعـة (البيرة) التـى كـانت مشروبه المفضل، حيث استعمل خبزًا غير تـام النضـج، يقطـع إلى فتـات ويوضع فى طست كبير، ويضاف إليه المحلول السكرى النـاتج مـن نقـع البلح، ويقلب، ثم يصفى ويترك المخلـوط ليتخمـر، وبعـد ذلـك يعبـأ فـى

جرار فخارية صغيرة يتم إحكام قفلها بالجبس. أما فلاحو الدلتا فكانوا يشربون النبيذ بجانب الجعة، حيث كان العنب يزرع على نطاق واسع هناك.

وكانت وجبة الطعام الأساسية تحتوى على لحوم وطيور وخضر وفاكهة وخبز وفطائر وجعة، وكان الطعام يؤكل بالأيدى مباشرة



شكل (٢٤)

(شكل ٢٤)، سواء كان ذلك على نطاق الأسرة الصغيرة، أو فى ولائم تضم الأقارب والأصدقاء، حيث يجلس الجميع على الأرض، ويوضع الطعام على موائد منخفضة تشبه (الطبلية) كما يفعل الكثيرون من فلاحى اليوم فى غالبية القرى.

وفى وصف لوليمة أقامها أحد أثرياء الفلاحين المصريين القدماء، تم ذبح ثور ضخم، وسلخ جلده، وقطعت أجزاؤه، ثم جهزت للشى بعد تتبيلها بالتوابل المختلفة، وشويت على الفحم بجانب عديد من الأوز. وأعدت جرار الجعة (البيرة) والنبيذ، ورصت الفواكه على شكل هرمى فى سلال مصنوعة من جريد النخل، وبرد الماء فى الأزيار الفخارية.

وتم تجهيز المنزل للمدعوين بأن نظفت أرجاؤه، وكنست ممرات الحديقة، وأزيل منها أوراق الأشجار المتساقطة، كما استدعى الموسيقيون والمغنون والراقصون، حيث كان المصريون - في جميع العصور - مولعين بالموسيقى، حتى قبل اختراع أية آلة موسيقية.

فالتصفيق بالأيدى المصاحب للغناء لا يتطلب مهارة معينة، وهناك آلات موسيقية كانت معروفة للمصريين القدماء منذ عصر بناء الأهرامات، مثل المزمار والقيثارة والقانون، بالإضافة إلى بعض الآلات الإيقاعية مثل الطبلة والصاجات والصلاصل والشخاشيخ.

وقد يصاحب الغناء بعض الرقصات الاستعراضية، أو الألعاب البهلوانية التى تقوم بها فتاة تميل للخلف، بحيث يتدلى شعر رأسها



شكل (٢٥)

حتى يلامس الأرض (شكل ٢٥). وهناك رقصات أخرى تقوم بها سيدات تبقى خلالها القدمان ساكنتان، بينما تقوم الراقصة بتحريك ذراعيها وأردافها حركات عنيفة مع الطرقعة بأطراف الأصابع، وربما تكون تلك الرقصة سلفًا لرقصة العوالم المصرية!.

ومن الغريب أن بعض العادات المصرية القديمة فى الغناء قد ورثناهـا، ومـازالت تعيـش بيننـا، ولعـل أبرزهـا ترديـد المغنـى لعبـارة «يـا ليلـى يا عينى!»، فكلمة «ليلى» ليست معناها ليل كما يبدو لنا، ولكنها كلمـة قبطية قديمة مشتقة من كلمة هيروغلوفية معناها: انشرح أو ابتهج، وعلى ذلك يكون قصد المغنى: إفرحى يا عينى، وهكذا يستقيم المعنى.

وبعد أن ينتهى الجميع من الطعام وتنـاول الحلـوى، وسمـاع الأغـانى والموسيقى، يتبارى المدعون فى إرضاء الداعى إلى الحفل، متغنين بكرمه، والدعاء له، مثال ذلك:

«فلتحل نعمة آمون فى قلبك.. ولتمنحك شيخوخة سعيدة..

وتقضى كل أيام حياتك فى سعادة وسرور..

وأن تصل إلى أعلى مراتب الشرف والتمجيد..

ولتكـن شـفتاك طـاهرتين.. وأعضـاء جسـمك قويـة.. وعينـاك حـادتى البصر.

إنك لمكسو بالكتان.. تركب عربتك وبيدك سوط ذهبى المقبض..

وتمسك يداك أعنة جديدة.. وخيولك مطهمة من سوريا..

ويجرى الزنوج أمامك ليفسحوا لك الطريق..

وتركب قاربك المصنوع من خشب الصنوبر..

والمزين كله من مقدمته إلى مؤخرته..

وتصل إلى قصرك الجميل المحصن الذى شيدته بنفسك.

وفمك مليىء بالنبيذ والجعة والخبز واللحوم والحلوى..

ولحوم الثيران قطعت إلى أجزاء..

وجرار النبيذ قد نزعت عنها أغطيتها.

وغناء شجى تتردد أنغامه على مقربة منك..

وينتشر حامل الروائح العطرية عبيرها حولك..

ويقف أمامك رئيس البساتين ومعه أكاليل الزهور..

ورئيس الواحات يقدم لك طيور السمان.. ورئيس الصيادين يقدم لك الأسماك.

وتصل مركبك من سوريا محملة بجميع الأشياء الطيبة..

وحظيرتك ملآى بالعجول.. وتوفق الغزالات فى خدمتك..

وتبقى أنت ويتهاوى أعداؤك.. وليس فيك ما ترمى به من شر..

وتدخل أمام مجمع الآلهة التسعة.. وتخرج منه منتصرًا..

٥ شهور السنة .. زراعيًا

كيف تعلم الفلاح المصرى القديم حساب الوقت وتقسيم السنة؟

إن السر يرجع – أيضًا – إلى سلوك النهر.. نيل مصر الخالد..

فلم تكن السنة بالنسبة إلى ذلك الفلاح المصرى القديم سوى الفترة من الفيضان، والفيضان الذى يليه.

ومع بشائر الفيضان يستعد الفلاح لتمهيد الأرض، وزراعة محصولاته الزراعية المختلفة، وتدب الحياة فى القرى، وهكذا فإن السنة عند الفلاح المصرى هى سنة زراعية.. وليست سنة شمسية أو قمرية.

ففى أوائل شهر يونيو من كل عام تعانى البلاد من الجفاف، وتنخفض المياه فى مجرى النيل، وتحمل الرياح رمال الصحراء وتلقى بها على أرض الوادى السوداء مهددة بابتلاعها، ويسود قلق شديد على الفلاحين وهم ينتظرون قدوم الفيضان الجديد الذى لم يخلف وعده قط، لذا قدس الفلاح المصرى القديم نهر النيل، ووضع جوهر هذا النهر فى مصاف الآلهه، وأطلق عليه اسم «حابى Hapi» أبو الآلهة.

وفى لحظة ارتفاع منسوب مياه الفيضان، كانت تقدم القرابين إلى المعبود «حابى» فى كثير من المعابد، وتلقى أسفار مباركة معطرة فى مياه

بحيرة معبد «رع حور آختى» فى المدينة المقدسة «أون» التى كان يعبد فيها الإله (رع). وبعد أربعة شهور تعود مياه النيل إلى مستواها العادى، لذا عرفت هذه الشهور الأربعة بفصل الفيضان (آخت)، واعتبر هذا الفصل أول فصول السنة.

وهكذا قسم الفلاح المصرى القديم السنة الزراعية إلى ثلاثة فصول زراعية، يضم كل فصل منها أربعة شهور، وبالتالى تضم السنة اثنى عشر شهرًا، تبدأ بفصل الفيضان (آخت) ويمثله أحد الآلهة وأمامه العلامة الهيروغليفية (نفر) بمعنى فصل الجمال، وكان هذا الفصل يضم الشهور أبيب ومسرى وتوت وبابة، وهى تقابل شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر فى التقويم الميلادى.

وبمجرد انحسار مياه الفيضان عن الأراضى الزراعية، ينتشر الفلاحون فى الحقول لحرث الأرض قبل جفافها، ثم يبذرون حبوبهم فيها، إذ لم يكن أمامهم سوى أربعة شهور حتى ينتهوا من ذلك ويبدءوا فى رعاية نباتاتهم وريها، ويعرف هذا الفصل بفصل بذر الحبوب (برت)، وهو يقابل فصل الشتاء، ويرمز له بالعلامة الهيروغلوفية (حتب)، أى أنه فصل الخير والعطاء، ويضم الشهور هاتور وكيهك وطوبة وأمشير، وهى تقابل الشهور الميلادية نوفمبر وديسمبر ويناير وفبراير.

والفصل الثالث هو فصل الحصاد (شمتو)، وهو يقابل فصل الصيف، ويرمز له بالعلامة الهيروغلوفية (عنخ)، أى أنه فصل الحياة. ويضم هذا الفصل الشهور: برمهات وبرمودة وبشنس وبؤونة، وهى تقابل الشهور الميلادية: مارس وإبريل ومايو ويونيو.

وتشتق أسماء الشهور القديمة السابقة من أصول فرعونية، فشهر تـوت مشـتق مـن اسـم الإلـه تحـوت Theth إلـه الحكمـة والعلـم والحسـاب، والمسيطر على تقسيم الزمن، والذى يرمز له بطائر أبى قردان، وشهر بابة مشتق من اسـم مدينـة طيبـة (الأقصر)، وينسـب شـهر هـاتور إلى الإلهـة حتحور Hathor إلهة الجمال والأمومة، والروح الحية للأشجار، وربة فى صورة بقرة، وشهر كيهك مشـتق مـن العيـد الدينـى (كاحركـا) وهـو عيـد اجتماع الأرواح (كا).

ويعنى شهر طوبة جمال نباتات القمح، بينما يشتق اسم شهر (أمشير) من اسم أحد عفاريت الزوابع عند قدماء المصريين، وينسب شهر برمهات إلى عيد الفرعون امنحوتب الأول، وشهر برمودة إلى الإلهـة (رنـن أوتـت) إلهة الحصاد التى تأخذ شكل الأفعى المقدسة، وشهر بشـنس مشـتق مـن اسم الإله خنسو Khons أحد آلهة القمر فى مدينة طيبة، وهو الإله الذى يطرد الأرواح الشريرة، وشهر بؤنة مشتق من (با أنت) وهـو عيـد الـوادى فى الأقصر.

وينسب شهر أبيب إلى الإلهة أبيب التى يحتفل بها فى ذكرى انتصار الإله حورس إلـه الخـير والفيضـان علـى الإلـه سـت إلـه الشـر والجـدب والعقم، وفى النهاية يشتق شهر مسرى من (مـس رع) بمعنـى ولادة الإلـه رع المتمثل فى قرص الشمس.

وبذلك تضم السنة الزراعية المصرية القديمة ثلاثة فصول فقط، وليسـت أربعة كما كانت السنة عند الشعوب القديمة المجاورة للمصريين القدمـاء، مثل العبرانيين والإغريق.

ولم يكن بداية الفيضان هو الميقات الوحيد لتحديد بداية السنة عند الفلاح المصرى القديم، فلقد لاحظ المصريون القدماء أن مجىء الفيضان يتفق بشكل واضح مع إشراق النجم سيريوس serius (نجم الكلب) فى آخر شهر يوليو فى السماء صباحًا، ولقد عرف هذا النجم باسم سوبديت söpdit، وسمى عند العرب باسم نجم الشعرى اليمانية، وكان من معبودات قريش، وذكر فى القرآن الكريم فى سورة النجم **﴿وأنه هو رب الشعرى﴾** الآية ٤٩. لذا اعتبر ظهور هذا النجم رمزًا لبداية السنة الزراعية الجديدة.

كما كان ظهور النجم أوريون orion – الذى عرفه المصريون القدماء باسم ساح أى صاحب الخطوات الواسعة – بشيرًا لحصاد العنب الذى يوافق أول السنة الزراعية، واعتبر هذا النجم رمزًا للإله أوزيريس، وبذلك أصبح النجم سيريوس رمزًا لإيزيس.

وتبعًا لما سبق، عزى الفلاح المصرى القديم فيضان مياه النيل إلى دموع إيزيس على موت زوجها أوزيريس، لذا اعتبر ظهور النجم سيريوس بمثابة احتفال بهذه المعبودة، وفى نفس الوقت احتفال ببداية السنة الزراعية.

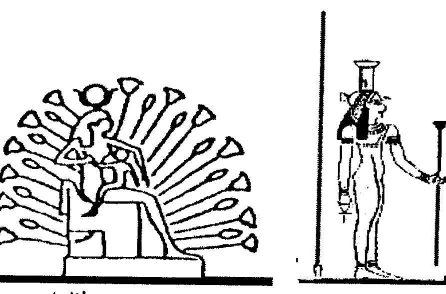
وهكذا تقدم المصريون القدماء فى شتى العلوم بسبب حرصهم على ضبط موعد فيضان نهر النيل، فبرعوا فى الفلك، وتقدموا فى الحساب والهندسة، وعرفوا الإحصاء من اختلاف الفيضان من عام إلى آخر، وكانوا يقيسون منسوب المياه وقت الفيضان ويقدرون مساحة الأرض التى يمكن زراعتها، والضرائب المستحقة عليها والتى تقدم للدولة.

وقسم المصريون القدماء كل شـهر مـن شـهور السـنة إلى ثلاثـين يومًـا، وكانت تضاف خمسة أيام فى آخر الشهر الرابع من فصل شمتـو (بؤونـة) لتكملة عدد أيام السنة إلى ٣٦٥ يومًا، وكانت تسمى هذه الأيـام الخمسـة أيام النسيء.

واعتبرت أيام النسيء هى الأيام التـى ولـدت فيـها خمسـة آلهـة هـى أوزيريس Osiris إله الزراعة والبعث، وزوجتـه إيزيـس Isis ربـة السـحر والجمال، وأخوه ست Seth إله الشر والعقـم والجـدب، وزوجتـه نفتيـس Nephthys – وهى فى نفس الوقت أخـت إيزيـس –، وحوريـس Horus ابن إيزيس وأوزيريس، وهو إله السماء على صورة صقر، والـوارث لملكـة أبيه الأرضية، والتى خلعها عنه عمه الشرير ست.



شكل (٢٦) ست وزوجته نفتيس



شكل (٢٧) إيزيس مع طفلها حوريس مختفيان فى أحراش الدلتا

وهناك أسطورة تحكى أنه بعد مقتل أوزيريس علـى يـد أخيـه سـت، اختفت إيزيس برضيعها حوريس في أحراش مستنقعات الدلتا، ولما كبر حوريس حارب عمه الشرير ست لاسترداد مملكة أبيه، وبعد تحكيم الآلهة، كسب حوريس القضية، وصار ملكًا أبديًا على كل الأرض، وذهب ست إلى الرعد في السماء!.

ولقد أضيف يومًا كل أربعة سنوات في عهد الملك سيتي - وربما في عهد ابنه رمسيس الثاني - كي تستقيم السنة، لذا عرفت السنة الكاملة باسم (رنبيت - نفر)، والسنة الناقصة، وكانت تسمى بالعرجاء، باسم (رنبيت - جاب).

وأيضًا قسم قدماء المصريين الشهر الواحد إلى ثلاثة أقسام، كل منها عبارة عن عشرة أيام، وقسم اليوم الواحد إلى أربعة وعشرين ساعة، اثنتى عشرة ساعة للنهار، ومثلهم لليل. وأطلقوا على الساعة الأولى من النهار (بارقة)، والساعة السادسة (قائمة)، والساعة الثانية عشرة (رع يتحد بالحياة)، بينما سميت الساعة الأولى من الليل (هزيمة أعداء رع)، والساعة الثانية عشرة ليلاً (تلك التى تشاهد جمال رع).

ولم تكن ساعات الليل والنهار متساوية الطول، بل اختلف طول كل ساعة من ساعات ضوء النهار الاثنتى عشرة، وساعات الظلام الاثنتى عشرة أيضًا وذلك باختلاف فصول السنة، ففى فصل الصيف تطول ساعات النهار، وتقصر ساعات الليل، وعلى العكس من ذلك فى فصل الشتاء.

واهتم الفلاح المصرى القديم بفصول السنة الزراعية اهتمامًا بالغًا، نظـرًا لعلاقتها المباشرة بالرى والعمليات الزراعية والحصاد، بينما اهتـم الكهنـة بالوقت من اليوم نظرًا لعلاقة ذلك بطقوسهم الدينية.

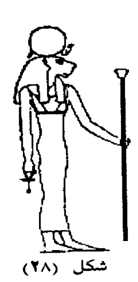
وكانت هناك أيامًا محددة من السنة يهتم بـها فلاحـو مصـر القدمـاء، خاصة تلك التى يحتفل فيـها بالأعيـاد والمناسبات الدينيـة. ففـى فصـل الفيضـان (آخـت) يتـم الاحتفـال بعيـد (أوبـت) الكبـير، ويسـتمر ذلـك الاحتفال نحو شهر، وهناك أعياد (بوبسطة) حيث يركبون فيـه القـوارب التى تسير على صفحة النيل وقت الفيضان، تتعـالى حنـاجرهم بالغنـاء، ولا يكفون عن شرب النبيذ.

وفى مطلع شهر مسرى يحتفل المصريون القدماء بعيد (تيخـى)، وفـى أول أيام شهر هاتور تعطل مصر كلها للاحتفال بفصل بذر البذور، كما لم يترك أجدادنا القدماء أىّ من الآلهة المحلية إلا وكان له عيد يحتفـل بـه مرة كل عام، حتـى الآلهـة الصديقـة كـان لهـا نصيـب مـن الاحتفـالات السنوية، حتى كادت السـنة كلـها أن تكـون احتفـالات متصلـة وأعيـادًا بمناسبة وبغير مناسبة!

وكان المصريون القدمـاء يسـتعدون لمثـل هـذه المناسـبات والأعيـاد أيمـا استعداد.. فكانوا يرتدون الملابس الكتانية الجديدة، ويتعطرون بـالروائح، ويتجهون إلى المعابد لتقديم القرابين وهم فى أتم زينة وأبهى حال، وهناك يسمح لهم بتناول الطعام واحتساء الجعة والنبيذ.. واللهو البرىء بطبيعـة الحال.

ومن الأيام السعيدة الأخرى التى كان يحتفل بها المصريون القدماء، اليوم الأخير من الشهر الثالث (توت) من موسم الفيضان (آخت)، حيث توقف الإلهين حوريس (ابن إيزيس وأوزيريس) وعمه إله الشر (ست) عن المعارك التى كانت تدور بينهما، حيث انتصر حوريس ونصب ملكًا على وادى النيل كله، بينما استولى ست على الصحراء وصار إلهًا للجدب.

وكذلك احتفل المصريون القدماء باليوم الأول من الشهر الثانى (كيهك) من فصل بذر الحبوب (برت) - وهو يقابل فصل الشتاء - حيث رفع الإله رع السماء بقوة ساعديه، وأيضًا اليوم الثانى عشر من الشهر الثالث (طوبة) من نفس الفصل، حيث أخذ الإله تحوت مكان عظمة توم فى حوض حقيقتى المعبد.


شكل (٢٨)

وعلى الرغم من تعدد أيام الأعياد التى كان يحتفل بها المصريون القدماء، كانت هناك أيام نحسات، خاف منها أجدادنا الفراعنة من النحس وسوء الطالع، مثال ذلك اليوم الثالث عشر من شهر كيهك، حين تقذف عين المعبودة سخمت Sekhmet (شكل ٢٨) - بمعنى القوية - البشر بالأمراض والأوبئة. وفى ذلك الوقت ساد الاعتقاد بأن هذه المعبودة - التى على شكل لبؤة - هى مظهر لعين الإله رع فى حالة غضبه، وابتدع الكهنة طقوسًا معينة يجب تأديتها لترضية سخمت، سيدة رسل الموت ومسببة الأوبئة. وما زال بعض

المصريين يخشون – حتى الآن – اليوم الثالث عشر من الشهر، ويتحسبون سوء الطالع !.

ومن الأيام الأخرى التى كان يخشاها المصرى القديم اليوم السادس والعشرين من شهر أبيب – أول شهور فصل الفيضان –، وهو يوم الذكرى السنوية لوقوع المعركة الكبرى بين حورس – ابن إيزيس وأوزيريس – وعمه ست إله الشر ومغتصب عرشه، وكذلك اليوم الثالث من أيام النسىء الذى يوافق يوم مولد ست.

وما زال الفلاح المصرى الحديث يحمل بين جوانحه ذكرى تلك الأيام الخوالى من عصر أجداده القدماء، مستعملاً نفس شهور السنة الزراعية، والتى عرفت بعد ذلك بالسنة القبطية، وارتبط كل شهر منها بأمثلة شعبية يرددها الفلاحون، معبرين فيها عن حالة الطقس، والعمليات الزراعية التى يجب تأديتها، وعلاقة ذلك بنهر النيل والفيضان الذى كان يحمل لهم الحياة والماء والطمى والخير، مثال ذلك:

١ – شهر توت (١١ سبتمبر – ١٠ أكتوبر) : هو أول شهور السنة القبطية، وترتفع فيه مياه الفيضان، لذا يقول المثل الشعبى (توت رى.. ولا فوت) إشارة إلى ضرورة الرى فى هذا الشهر. كما لاحظ الفلاح المصرى القديم ظهور كثير من الطيور المائية فى ذلك الشهر، مثل الكراكى، لذا يقول المثل الشعبى (إن زعقت الكركية.. ارمى الحب وعلىّ).

٢ – شهر بابة (١١ أكتوبر – ٩ نوفمبر) : يلائم هذا الشهر زراعة المحاصيل الزراعية، حيث يقول المثل الشعبى (زرع بابه غلب النهاية) دلالة على زيادة المحصول على الرغم من سرقة بعضه بواسطة الطيور أو الحشرات أو اللصوص. وأيضًا يبدأ الجو فى البرودة خلال هذا الشهر، لذا يقول المثل الشعبى (بابه .. خش واقفل البوابة).

٣ – شهر هاتور (١٠ نوفمبر – ٩ ديسمبر) : يتم بذر حبوب القمح خلال هذا الشهر، لذا يقول المثل الشعبى (هاتور .. أبو الذهب المنثور)، وأيضًا (إن فاتك زرع هاتور .. خلى الأرض تبور).

٤ – شهر كيهك (١٠ ديسمبر – ٨ يناير) : يقصر النهار فى ذلك الشهر، كما فى المثل القائل (كيهك .. صباحك مساك).

٥ – شهر طوبة (٩ يناير – ٧ فبراير): يشتد البرد (طوبة .. تخلى الصبية جلدة، والعجوز كركوبة).

٦ – شهر أمشير (٨ فبراير – ٩ مارس) : وهو آخر شهور فصل الشتاء (برت)، حيث يدفأ الجو مما يساعد على سرعة نمو المحاصيل، ويقول المثل الشعبى (أمشير يقول للقمح القصير.. سير.. حصل الكبير)، لذا ينتظر الفلاح ذلك الشهر لنفس السبب ويقول (بكره ييجى أمشير، والصغير يحصل الكبير). وفى نفس الشهر تنشط الرياح المحملة بالأتربة، فيقول المثل الشعبى (أمشير .. أبو الزعابيب الكثير).

٧ - شهر برمهات (١٠ مارس - ٨ أبريل) : وهو أول شهور فصل الصيف (الحصاد)، والذى عرفه الفلاحون القدماء باسم (شمو) ، وفيه تنضج المحاصيل فى الحقل، لذا يقول المثل (برمهات .. روح الغيط وهات).

٨ - شهر برمودة (٩ أبريل - ٨ مايو): حيث يبدأ حصاد القمح والشعير، ويتم الدراس بدق السنابل بعمود من الخشب، كما يقول المثل (برمودة - دق بالعمودة).

٩ - شهر بشنس (٩ مايو - ٧ يونيو): ومنه يتم حصاد المحاصيل من الحقل، فتخلوا هذه الحقول من الزراعات، لذا يقول المثل الشعبى (بشنس.. يكنس الغيط كنس).

١٠ - شهر بؤونة (٨ يونيو - ٧ يوليو): هو آخر فصول الصيف ، حيث يكون مستوى الماء فى النهر أقل ما يمكن، وتجف الترع والقنوات المرتفعة، وترتفع درجة الحرارة فتجف المزروعات لقلة المياه، ويقول المثل: (بؤونة الحجر .. ينشف الميه فى الشجر).

١١ - شهر أبيب (٨ يوليو - ٦ أغسطس) : هو أول شهر فى فصل الفيضان (آخت)، حيث تندفع المياه ويسمع لها صوتٌ، لذا يقول المثل (فى أبيب.. يسمع للماء دبيب)، كما تنضج الفاكهة فى هذا الشهر، لذلك يقول المثل (أبيب .. طباخ العنب والزبيب).

١٢ – شهر مسرى (٧ أغسطس – ٥ سبتمبر) : ترتفع مياه الفيضان، وتتدفق المياه فى القنوات والترع المرتفعة، ويقول المثل الشعبى (مسرى.. تجرى فيه كل ترعة عسرة).

ولقد تداول الفلاح المصرى – على مر العصور – أمثلة شعبية كثيرة ذات علاقة مباشرة بالعمليات الزراعية، منها على سبيل المثال:

– اللى يزرع ذرة فى النيروز .. يبقى قولحة من غير كوز.
– اللى يزرع ما يخافش من العصفور.
– إن سبقك جارك بالحرث .. اسبقه بالمحاياه.
– إن كان زرعك استوى .. بادر بحصاده.
– إن نطرت على السلاح .. يا سعد الفلاح.
– اللى غيطه على باب داره .. هنياله .
– راح تروح فين الشمس عن قفا الحصاد؟
– الزرع إن ما غنى .. ستر.
– الزرع زى الأجاويد .. يشيل بعضه.
– الشجرة اللى تضلل عليك .. ما تدعيش عليها بالقطع.
– صيف بمحراتك .. ولا تصيف بمنجلك.
– كل شيء بالبخت .. إلا القلقاس .. ميه وفحت.
– ما يموت ع السد .. إلا قليل الفلاحة.
– فلاح مكفى .. سلطان مخفى.

٦ سلام عليك .. يا حابى

حابى .. إله النيل العظيم .. مجلب الفيضان والخير والحياة، لم يكن يحمل - عند مجيئه - الماء والطمى فقط، ولكن كان يحمل معه - فى نفس الوقت - الأعياد والفرحة لجميع المصريين القدماء، فتعم السعادة سائر وادى النيل منذ سبعة آلاف سنة مضت، وحتى الآن.

وكان الإله حابى يصور على هيئة رجل ملتح، عارى الجسم، طويل الشعر، بدين، تبدو عليه هيئة الأغنياء والنسب العريق، له ثديان بارزان ممتلآن على صدر رحب كالمرأة دلالة على كثرة العطاء والخير، لونه أخضر مزرق بلون مياه الفيضان، وعلى رأسه قلنسوة يتوجها إكليل من نباتات وأزهار اللوتس والبردى، ويحمل بين يديه خيرات النهر من أسماك وزهور وجرار الماء (شكل ٢٩).

شكل (٢٩)

ولقد اعتبر هذا الإله بمثابة أبى الآلهة ، الذى يغذى ويجلب المؤنة لمصر كلها، والذى يهب كل فرد الحياة، ويأتى بالخير والغذاء، ويجلب مجيئه البهجة لكل إنسان.

وكانت تنظم قصائد المديح للإله حابى ، ومنها :

(أنت الذى خلقت نفسك بنفسك .. دون أن يعرف أى فرد جوهرك..

غير أن كل إنسان يبتهج فى اليوم الذى تخرج فيه من كهفك..

إنه سيد الأسماك ..

وإنك غنى بحقول القمح).

وكذلك :

(سلام عليك يا حابى ..

يا من تخرج إلى هذه الأرض وتأتى لتحمى مصر ..

يا من تخفى فى الظلمات مجيئك ..

أنت اللجة .. تنتشر على الحقول التى يخلقها رع..

إنك تهب الحياة لجميع العطشى ..

ومتى هبطت، فإن جب - إله الأرض - يشغف بالخير على اختلاف أنواعه..

ونبرى - إله الحبوب - يقدم قربانًا ..

وبتاح - إله الفنون والصنائع فى منف - ينشر الرخاء فى داء صناعته..

أنت سيد الأسماك ..

متى عبرت الشلال ، لم تعد الطيور ترتمى ميتة على الحقول..

أنت صانع القمح والشعير .. وكاسى المعابد حلل الأعياد..)

واعتقد المصريون القدماء أن نهر النيل هو مركز العالم ، وأن منبعه هو بداية الدنيا، لذا كان قبلتهم عند عبادتهم تتجه ناحية الجنوب، وكان فيضان النهر عيدًا، ينتهز قدومه عامة الشعب فى ذلك العهد الفرعونى القديم.

وفى هذا العيد ، يتوقف نشاط البلاد ، وتتدفق أفواج البشر من كل فج عميق، ويسبب ذلك زيادة حركة السفر بالسفن والقوارب، وتزدهر التجارة، ويفرح الجميع مستبشرين بقدوم الفيضان، ويسود الضحك واللهو والتمتع بالملذات. ويخبرنا المؤرخ هيرودوت عن أعياد (بوباسطة) التى كانت تجذب نحو سبعمائة ألف حاج من الرجال والنساء!.

ونظرًا لأن معظم سكان مصر الفرعونية كانوا من الفلاحين ، لذا زاد الاهتمام بالأعياد الزراعية التى ترتبط بالمواسم الزراعية، وعلى رأسها عيد فيضان النيل (وفاء النيل)، وكانت هذه الاحتفالات شعبية، يشارك فيها جميع طوائف الشعب، يقدمون خلالها القرابين، ويؤدون المناسك والطقوس التى يبتدعها الكهنة تبعًا لنوع الاحتفال.

فإذا ما حل وقت الفيضان ، احتشدت جماهير المصريين القدماء على شواطئ النهر لمشاهدة قوارب الملك والأمراء والنبلاء والكهنة، وهى تتهادى على صفحة النيل فى خيلاء وروعة وجلال، وحولها بعض القوارب الصغيرة لأفراد الشعب، مشاركين الاحتفال، مهللين ومكبرين، ومنشدين ومصفقين.

ويقوم الكهنة بطقوسهم الدينية، يقدسون فيها الإله حابى إله النيـل، ويؤدون صلاتهم وابتهالاتهـم، ثـم تنحـر الذبـائح وتـوزع لحومـها. وكـان أفراد الشــعب يرسمـون أشــكالاً لبعض الآلهـة علـى قطـع مـن القماش الثمين، ويعطرونها، ثم يلقون بها فى ميـــاه النيـل تعبـيرًا عـن فرحتـهم بالفيضان.

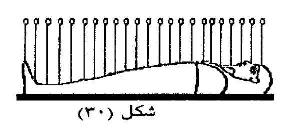
وكـانت النسـاء الراقصـات المغنيـات يطفـن بـالقرى والأسـواق لتسـلية الجماهير المحتشدة المحتفلة، ويعرضن رقصاتهن بمصاحبة فرق موسيقية مكونة من عازف علـى مزمـار الغـاب ذى القصبتـين أو النـاى، وضـارب الدف كما نشاهده فى احتفالات الفلاحـين بـالقرى المصريـة حتـى وقتنـا الحالى.

ووجدت الآلهة المحلية لكل مقاطعة فى مصر فـى مثـل هـذه الأعيـاد فرصة مناسبة للظهور والمشاركة، حيث يقوم الكهنــة بحمـل تمثـال ذلـك الإله داخل مقصورته الذهبية على أكتافهم، يحيط بهم كوكبة من حاملى الأعلام والقرابين، ويطوفون أنحاء القرية بين هتاف الجماهير وتهليلهم.

وفى خلال ذلك الموكـب ، يقـوم الكهنـة بـترتيل أدعيتـهم ، مطلقـين البخور ذى الرائحة العطرة التى تضفــى علـى الاحتفـال الجـو الروحـانى الملائم. ويتوقف الموكب عدة مرات فى الطريق لاستقبال القرابين، ثم تأتى اللحظـة الحاسمـة حينمـا يزيـح الكهنـة السـتار الـذى يحجـب جوانـب المقصورة الصغيرة المحمولة، فيظهر تمثال الإلـه، وهنـا تصيـح الجماهـير المحتشدة حوله صيحات الفرح لذلك التمثال المقدس.

ويعتبر بداية السنة الزراعية فى شهر توت واحدًا من أهم الأعياد التى كان يحتفل بها الشعب المصرى القديم، وسمى فى عهد الفرس (٥٢٥ قبل الميلاد) بعيد النيروز. وفى ذلك الوقت يكون ماء الفيضان قد ارتفع ، وفاض على أراضى الوادى والدلتا بالماء والطمى. ولقد ظل الاحتفال بعيد فيضان النيل (عيد وفاء النيل) فى مصر حتى ستينيات القرن العشرين، بعدها حجبت مياه الفيضان خلف السد العالى، وحرمت الأراضى الزراعية من الطمى الذى كان يخصبها.

وفى ذلك العهد الفرعونى القديم، كان الاحتفال ببداية السنة الزراعية يبدأ عندما يصدر الملك تعليماته ببداية حرث الأرض بعد انحسار مياه الفيضان عنها، فيخف الفلاحون خلف محاريثهم وهم يغنون المواويل والأناشيد البهيجة، ويحثون ثيرانهم على العمل. وقد يشارك أصحاب الأراضى والأمراء - بل والملك نفسه - فى مثل هذه الاحتفالات، ويحرثون أول خط إيذانًا ببداية السنة الزراعية.



شكل (٣٠)

وكان يحتفل بالإله أوزيريس - رمز الزراعة والخصوبة - عند بداية السنة الزراعية، فهو الحبة التى توضع فى باطن الأرض محتفظة بعناصر الحياة فى ظلمة العالم الآخر، ثم تدب فيها الحياة، وتبعث مرة أخرى من باطن الأرض، مكونة ساقا خضراء تتلقى أشعة الشمس، ثم تكون سنابل مليئة بالحبوب (شكل ٣٠).

ويقول أوزيريس عن نفسه فى كتاب الموتى:

(أنا أوزيريس ..

أعيش كحبة من القمح .. وأنبت كحبة من القمح).

ولقد اهتم الفلاح المصرى بالاحتفال بالإلــه أوزيريـس ، حيـث تشـكل تماثيل له من الطين الطرى، تخلط بحبوب من القمح أو الشعير، ثم تنبت هذه الحبوب وتظهر النباتات الصغيرة مــن التمثـال الطينـى رمـزًا للبعـث وعودة الحياة مرة أخرى.

كما احتفـل المصريـون القدمـاء بعـودة الإلـه أوزيريـس إلى الحيـاة مـرة أخرى،وذلك عندما تنمو النباتات فى الحقول، وتـورق الأشـجار، وتزهـر الأزهـار. ويعتـبر هـذا العيـد عيـدًا لقيامـة أوزيريـس وبعثـه، حيـث يتـم الاحتفـال بإقامـة شـجرة خضـراء - رمـزًا للإلـه وحياتـه المتجـددة - فـى المنزل، ويزينونها بقطع الحلى المزخرفة الملونة، تمامًا كما يفعل الأوربيون الآن عند تزيين شجرة عيد الميلاد.

وخلال الشهرين الثانى والثالث (مسرى وتـوت) مـن فصـل الفيضـان، يحتفل الشعب المصرى كله بعيد أوبـت Opet الجميـل الـذى يغـادر فيـه الإله آمون معبده فى الكرنك ويقوم بزيارة حريمه فى معبد الأقصر !. وفى ذلك الوقت يكون الفيضان قد وصل إلى أقصى زيادة له، حينئـذ لا يكـون للفلاحين عملاً ما يؤدونه.

وتبدأ الاحتفالات الشـعبية مـن معبـد أوبـت بـالكرنك، حيـث يتخـذ الباعة الجائلون أماكنهم حول الأعمدة الضخمـة للمعبـد، ويعرضـون علـى

المارة منتجاتهم من البطيخ والرمان والعنب والتين الشوكى، وكذلك الطيور المذبوحة المعدة للطهى، وأيضًا أنواعًا مختلفة من الخبز والفطائر.

ويستعد الكهنة للاحتفال بإعداد القوارب التى ستشارك فى الموكب، وعلى رأسها مركب آمون ذات رأسى الكبش عند مقدمتها ومؤخرتها (شكل ٣١)، ومركب موت التى تزينها رأس سيدة تحمل على رأسها نسرًا، ومركب خونسو التى تزينها رأس الصقر.



شكل (٣١)

وتحمل هذه المراكب على أكتاف الكهنة من المعبد بواسطة أذرع خشبية، ويسيرون بها على الطريق الذى تقام على جانبيه تماثيل أبى الهول ذات رؤوس الكباش (طريق الكباش)، ويرتدى الكهنة خلال هذا الاحتفال مآزر طويلة ذات حمالات، وهم حليقو الذقون، ورءوسهم عارية.



شكل (٣٢)

ويسير أحد قارعى الطبول فى مقدمة الموكب (شكل ٣٢)، بينما يرتدى بعض الكهنة جلود الفهد على أكتافهم، حيث يحرقون البخور الذى تنبعث رائحته العطرية فتملأ المكان.

وعندما يصل هذا الموكب إلى شاطئ النهر المواجه لمعبد الكرنك، تكون فى انتظاره قوارب كثيرة أعدها الأهالى المشاركين فى الاحتفال، وزينوها بالزخارف الملونة، إلا أن مركب آمون تكون متميزة بطولها الكبير الذى يصل إلى نحو ١٣٠ ذراعًا، ووزنها الذى يصل إلى نحو أربعة أطنان.

ويقام على ظهر مركب آمون مقصورة كبيرة تعلوها مظلة، تحتوى بداخلها على التماثيل المقدسة المصنوعة من الذهب الخالص، بالإضافة إلى كنوز من الذهب والفضة والفيروز واللازورد. وتنتصب عند مقدمة المركب وعند مؤخرته مسلتان وأربعة صوارى للأعلام.

وحينما تتحرك مركب آمون من الشاطئ، فإن الجنود يحيطون بها، حاملين شاراتهم وأعلامهم الملونة، وسط ترتيل الكهنة بأناشيد تمجد الإله آمون، بينما تحرك النساء الصلاصل والصاجات، يصاحبها تصفيق الرجال، وقارعى الطبول، ونافخى النفير، مما يبعث البهجة والفرح فى جمهور المحتفلين.

ويتجمع الفلاحون من القرى المطلة على نهر النيل مشاركين فى هذا الاحتفال العظيم، ويتدفق الطعام الممنوح لهذه المناسبة على صورة قطعان من الثيران والعجول والغزلان والماعز البرى، هذا بجانب سلال الفاكهة والبخور اللازم لتعطير الهواء وتنقيته.

وتصل هذه الكوكبة من القوارب خلال رحلتها النيلية إلى مدينة أوبت Opet بالأقصر، تحيط بها جميع مظاهر العظمة والأبهة. ويشاهد فى مقدمة الاحتفال زنجى يحمل طبلة وبجانبه زنوج آخرون يرقصون رقصًا عجيبًا (شكل ٣٣)، ويصلصل كاهن وكاهنة بالشخاشيخ، ويدقون بالصنوج النحاسية.



شكل (٣٣)

ويسير الكهنة والعازفون فى نهاية الموكب، وخلفهم جموع غفيرة من سكان طيبة من الرجال والنساء والأطفال، وكذلك الأهالى القادمون من القرى القريبة والبعيدة للاحتفال بالإله آمون فرحين صائحين مغنيين. ويظل ذلك المهرجان حتى يصل الموكب إلى الشاطئ الموازى لمعبد الأقصر، فيحمل الكهنة المراكب المقدسة على مناكبهم مرة أخرى، ويسير أمامهم حامل الطبل، ويدخلون معبد الأقصر بين صخب الجميع وفرحهم.

وبعد دخول المراكب المقدسة إلى المعبد، يتقدم الزوار ملتمسين البركة، ومقدمين القرابين المختلفة، بينما تقضى الجموع الغفيرة طيلة اليوم فى فرح وغناء ورقص، يأكلون من لحوم الأضاحى، ويشربون الجعة والنبيذ دون مقابل.

وبرغم مرور قرون طويلة على احتفالات المصريين القدماء بعيد أوبت، وزيارة الإله آمون لمعبد الأقصر، فإن سكان هذه المدنية مازالوا يحتفظون بتراثهم القديم ولكن بصورة مختلفة. فعند الجانب الشرقى لبهو الأعمدة – الذى بناه الملك رمسيس الثانى بمعبد الأقصر – يقع مسجد سيدى يوسف أبى الحجاج الذى يحتفل به احتفالاً دينيًا تقليديًا بصورة تتفق كثيرًا مع مظاهر الاحتفال القديم بالإله آمون!

ومن الغريب أن مركب آمون المقدسة التى كان يحملها الكهنة فوق مناكبهم يوجد نظير لها فى ساحة مسجد (سيدى أبى الحجاج)، حيث يحمل أتباع هذا الشيخ ذلك القارب الملون على عربة ويربطونه بالحبال، ويطوفون به أرجاء مدينة الأقصر – الذى يتولاها سيدى أبى الحجاج بحمايته ورعايته – فى اليوم الرابع عشر من شهر شعبان من كل عام.

ويبدأ الاستعداد لهذا الاحتفال قبل موعده بنحو أسبوعين، حيث يجتمع رهط من الرجال تحت قبة المسجد، وفى ميدان الساحة بالقرب من المسلة القائمة أمام معبد الأقصر، يقيمون الصلاة ويرتلون الأذكار، بينما يجتمع آخرون يتبارزون بالنبابيت، أو يمتطى بعضهم جيادًا مدربة ترقص على أنغام الموسيقى التى تعزف طول النهار.

وفى المساء تمتلئ مشارب القهوة بالوافدين من البلاد المجاورة والبعيدة، حيث الغناء والرقص والموسيقى، فيما يشبه احتفالات أجدادنا القدماء بعيد الإله آمون. وتستمر هذه الاحتفالات حتى اليوم الرابع عشر من شعبان، وهى الليلة الكبيرة للاحتفال، فيجتمع جمهور عظيم، وتنحر

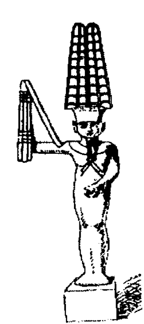
الذبائح، وتقام الموائد على ضوء القمر الذى يكون بدرًا تامًا، بينما يتلألأ مسجد سيدى أبى الحجاج بأنوار تزيد من ضياء هذه الليلة.

وفى خلال هذه الاحتفالات يكون قارب أبى الحجاج قد أعيد طلاؤه طلاءً جديدًا، وتزيينه بثلاث خطوط أفقية من الألوان الأزرق والأبيض والأحمر، ثم يغطى القارب بقماش ملون، ويحمل على عربة، يتبعه أفراد الأسرة الحجابية.

ويكتمل الجمع عند المسلة وفقًا للتقاليد، وينضم إليهم بعض رجال الشرطة على خيولهم المطهمة، يتبعهم إبل مكسوة بالأقمشة الملونة، ورهط من مشايخ الطرق المختلفة حاملين أعلامهم الملونة، وجمهور كبير من الرجال والنساء والأطفال، ينشدون جميعًا قصائد المديح لشيخهم (سيدى أبى الحجاج)، وبدون أن يدركوا أنهم يحيون طقوسًا قديمة انسابت إليهم عبر آلاف السنين، تحمل روح الإله آمون ورحلته المقدسة.

وهناك أعياد أخرى احتفل بها الفلاح المصرى القديم فى ذلك العهد الموغل فى القدم، مثال ذلك عيد الحصاد. وفى هذا الاحتفال يشارك الملك فى طقوس العيد، ويقدم له منجلاً من النحاس المزخرف بالذهب ليفتتح موسم الحصاد بقطع بعض سنابل القمح، ثم تقدم للملك صحبة من نباتات القمح من الحقل، تمثل إنتاج البلاد من هذا المحصول الرئيسى الهام الذى تمتد مساحات زراعته من البحر المتوسط حتى الشلال بجنوب الوادى.

ويقطع الملك السنابل بمنجله الذهبى، ويفصلها عن سيقان القمح، كما يفعل حاصدوا القمح فى حقولهم، بينما ينشد الكهنة ترانيم مقدسة مباركة لحقول القمح. وفى نهاية هذا الاحتفال تقدم حزمة من القمح للإله المحلى على صورة سنابل مضفرة مع سيقان القمح فيما يعرف باسم «عروسة القمح».



شكل (٣٤)

كما كانت ضفائر سنابل القمح «عروسة القمح» تهدى أيضًا إلى الإله مين Min – إله الخصوبة (شكل ٣٤)، والإلهة رنوتت إلهة الحصاد، والإله نبر إله الحبوب، وتستمر أعياد الحصاد طوال شهر برمودة.

وفى موسم الحصاد، احتفل الفلاحون القدماء أيضًا بالإلهة إيزيس التى ترمز إلى أرض مصر الخصبة، فيحمل الفلاحون سلالاً مليئة بسنابل القمح اعترافًا بفضلها هى وزوجها أوزيريس على الزراعة والفلاحين. ويصاحب الاحتفال بعيد الحصاد ألعابًا رياضية، ورقصًا وغناءً.



ومن أمثلة مظاهر الاحتفال بعيد الحصاد، تلك الرسومات الموجودة على جدران مقبرة أمنحتب الثانى (١٤٥٠ – ١٤٢٥ قبل الميلاد)، والتى تمثل تقديم الشكر والقرابين للإله آمون. وفى مقبرة «خع أم حات» يشاهد صاحب المقبرة يقدم قربانًا محروقًا لإلهة الحصاد رنوتت المتمثلة

فى شكل امرأة بــرأس حيــة جالســة علــى عــرش، ترضــع طفــلاً هــو إلــه الحبوب الصغير نبرى، وتحمل هذه الرسومات اسم الملك الحاكم أمنحتب الثالث (١٤٠٨ - ١٣٧٢ قبل الميلاد).

وتقول النقوش الموجودة على جدران المقبرة السابقة:

«(خع أم حات) يقدم كل الأشياء الطيبة الطاهرة للإلهة رنوتت سيدة مخزن الغلال فى اليوم الأول من الشهر الأول من فصل الصيف (برمهات) وهذا اليوم يوافق مولد نبرى إله الحبوب».

وكان عيد الحصاد يستمر عدة أيام تتم خلالها مراحله المختلفة، ففــى اليوم الأول تقدر مساحة الأراضــى المنزرعــة قمحًــا بواسـطة موظفــى الملــك حتى يمكن تقدير المحصول وحساب الضرائب الواجب دفعها، وبعد ذلك يحصــد القمــح، ويــدرس، ثــم يــذرى فــى اليــوم الأول مــن الشــهر التــالى (برمودة)، ويقدم للآلهة الخاصة بالحصاد.

وفــى عيــد الحصــاد، يتقــدم كافــة الشــعب بــالصلاة والدعــاء للإلهـــة رنوتــت، حيــث أن محصــول القمــح يــهم جميــع فئــات الشــعب وليـــس الفلاحين فقط، لذلك نشاهد فى كثير من الحالات قيام الملك نفسه بتقديم قربان لإلهة الحصاد رنوتت، وأيضًا للإله آمون الإله الأعظم الــذى يحكــم العالم، ويكون ذلك بمثابة نصيب الآلهة من الحصاد.

وما زلنا نحن المصريين المحدثين نحتفــل بعيــد الربيــع (شــم النســيم) تمامًا كما كان يحتفل به أجدادنا الفلاحون، الذين كانوا يحتفلون به فــى

بداية موسم الحصاد (شمو)، ومنها حرفت إلى (شم)، ثم أضيف لها كلمة النسيم!.

وفى هذا اليوم يخرج الجميـع للتـنزه فـى الحقـول والحدائـق، وعلـى ضفاف النيل، يأكلون الأسماك المملحة (مثل الفسيخ والسردين)، والبصـل الأخضر الذى يرمز للصحة، والبيض الملـون الـذى يرمـز إلى بـدء الخليقـة والإنجاب، والخـس الـذى يرمـز إلى الخصوبـة ويمنـع العقـم، والحمـص الأخضر (الملانة)، ربمـا دون أن نـدرى أن ذلـك كلـه هـو مـا كـان يفعلـه أجدادنا القدماء عند احتفالهم بعيد بداية موسم الحصاد (شمو).

٧ الثروة الزراعية فى مصر القديمة

تمتد أصولنا - نحن المصريين - إلى الريف.. وكثيرًا ما تـهفو أنفسنا لزيارة أهلينا هناك.. حيث تقع أبصارنا على بساط أخضر جميل يمتد من تحت قدمينا حتى نهاية الأفق، من أعشاب ومحاصيل ونباتات خضر وشجيرات وأشجار، كلها من خيرات الله التى وهبها إياه - سبحانه وتعالى - إلينا منذ بدء التاريخ على يد نهر النيل العظيم.

والفلاح المصرى القديم هو أول من غرس نبتة فى الأرض الخصبة المتراكمة من طمى النيل، ومن هذه النباتات كان طعامه وثيابه وعلف حيواناته ومواد بناء مسكنه وخامات صناعة أدواته، حتى أن مساحة الأراضى الزراعية فى عهد الأسرات كانت تقدر بنحو سبعة ملايين فدان، لم تزدد إلا قليلاً ونحن نحتفل بالألفية المصرية السابعة!.

ولقد عرف الفلاح القديم أنواعًا مختلفة من الأشجار التى كانت تنمو على حواف الترع، وعند أطراف الحقول، وحول المعابد. وكان كثير من هذه الأشجار وافرة الظلال، فيستظل تحتها وقت راحته، كما كان بعضها مثمرًا، فاستطاب ثمرها.

ومن أهم الأشجار التى عرفها الفلاح المصرى القديم واهتم بزراعتها شجرة السنط (*Acacia nilotica*)، والتى كانت تعرف باسم (شنط) أو

(شنت) أو (شند)، وزرعت منذ عصر ما قبل الأسرات. واستخدم خشب السنط فى صناعة الأثاث والتوابيت، وأدوات الفلاحة، وفى صناعة السفن وسواريها، والقوارب، كما استعملت أزهار السنط فى تجهيز أكاليل الموتى، والثمار فى الطب والصباغة.

ويعتبر النخيل *Phoenix dactilifera* أقدم ما زرع فى مصر، ولقد عثر على بقايا جذوع نخل ترجع إلى العصر الحجرى القديم فى الواحة الخارجة، وكانت جذوعه تستخدم فى تسقيف بيوت الفلاحين حتى وقت قريب، كما عثر على نوى بلح فى عصر ما قبل الأسرات.

واستغل المصريون القدماء جذوع النخيل كأعمدة للبناء، ثم قلدوها بعد ذلك حيثما بدءوا فى استخدام الحجارة فى البناء فى عهد الملك زوسر. واستعملت جذوع النخيل أيضًا فى بناء المبانى والحظائر، وفى عمل كبارى صغيرة على القنوات، وصنع من سعفه سلال ومقاطف وصنادل، ومراوح للتهوية، كما صنعت منه باقات وآكاليل جنائزية (شكل ٣٥) مازالت تستخدم حتى الآن فى مصر.



شكل (٣٥)

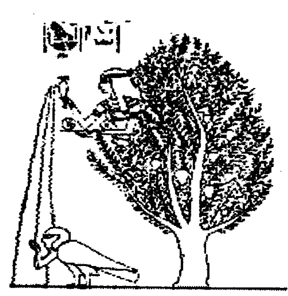
وصنع من عثاليج النخيل الفراجين والمكانس، وجدلت منــه الحبـال، واسـتخدمت أليافـه فـى عمـل الشـباك والأكيـاس، كمـا صنعـت الحلـــى التقليدية فى هيئة نخلة، تزين بها عامة الشعب خلال المواسم والأعياد.

واعتبر البلح غذاءً طيبًا لعامـة الشـعب، حتـى أن كلمـة أمـهات التـى نسـتعملها الآن بمعنـى بلـح رطـب، ترجـع إلى الكلمـة المصريـة القديمـــة (أمت)، كما وجدت كميات لا حصر لها من البلـح والعجـوى فـى مقـابر كثير من قدماء المصريين.

وأقبل المصرى القديـــم على تنـــاول البلـح ســـواء طــازجًا أم مجففًـا، كمـــا صنـع منـه عجـوى واسـتعملها فـى حشـو بعـض أصنـاف الكعـــك. واستعمل منقوع البلح المتخمر فى صناعــة نـوع مـن النبيـــذ يعـرف باسـم (العرقى)، كما استخدم هذا النبيـذ فى التحنيط نظـرًا لاحتوائه على نسبة عالية من الكحول، وكذلك أضيف سكر البلح إلى الجعة (البيرة) لتحســين طعمها.

ولقد قدس الفلاح المصرى القديم شجرة الجميز (*Ficus sycomorus*)، التى تعود زراعتها إلى عصر ما قبل الأسرات، ووجدت ثمارهـــا فـى قبـور الأسرة الأولى. واستعمل خشب هذه الشجرة فـى صناعـة تمـاثيل الآلهـة، والأثاث، والتوابيت، كما كانت ثمار الجميز تؤكل وتقدم قرابين للآلهـة، واستعملت المادة المفرزة من لحاء الشجرة – عند جرحها بسكين – فـــى صناعة بعض العقاقير الطبية التى كانت تستخدم فى علاج أمراض الجلـد والعين، كما صنع من ثمارها نوعٌ من الخمور.

واعتقد قدماء المصريين أن روح حتحور Hathor – حاكمة السماء وجسمها الحقيقى، والروح الحية للأشجار –، ونوت Nut – ربة الشمس– تسكن شجرة الجميز. وترينا النقوش الكثيرة (شكلى ٣٦ و ٣٧) أن روح المتوفى تقف تحت هذه الشجرة على هيئة طائر له وجه إنسان قائلة:



شكل (٣٦)



شكل (٣٧)

«يا جميز «نوت»».. أعطنى الماء والطعام والهواء لأعيش». فتبرز من الشجرة سيدة، تطل حاملة مائدة صغيرة على إحدى يديها عليها قرابين مختلفة، وتمسك باليد الأخرى إناء به ماء لتمده بالماء والغذاء.

وما زالت شجرة الجميز تحتفظ بمكانتها الخاصة لدى الفلاحين المصريين المعاصرين، حيث تزرع فى معظم جبانات القرى اعتقادًا بأن

أرواح الموتى تقف عليها مساء كل خميس! . وكان الفلاح المصرى القديم يقدم القرابين لشجرة الجميز (شكل ٣٨) إكرامًا لأرواح موتاه ساكنى هذه الشجرة.



شكل (٣٨)

كما توجد شجرة جميز عتيقة بالمطرية تعرف باسم «شجرة جميزة العذراء»، حيث يعتقد أن السيدة العذراء مريم - عليها السلام - جلست تحتها ومعها ابنها السيد المسيح - عليه السلام - عندما كان طفلاً. كما اعتبرت شجرة الجميز شجرة مقدسة فى معبد (أون) فى عين شمس - القريبة من المطرية - نظرًا لأن الآلهة المختلفة تسكن بها.

وكان للمصريين القدماء عيد يعرف باسم «عيد الحدائق»، تخضر فيه الأشجار، وتتفتح فيه الأزهار، وفيه تدعى ابنة صاحب الدار لتجلس تحت شجرة جميز وتستظل بفروعها، وتسمع تغريد الطيور فوق أغصانها، بينما يكون عشيقها جالسًا بجوارها. وهناك بردية تحمل أنشودة لشجرة جميز تقول كلماتها:

غنت شجرة الجميز إلى سيدة جميلة..
وكانت كلماتها تتساقط كقطرات الشهد..
فأصبح الثمر الذى أحمله بلون الياقوت الأحمر..
وكل ما فى تعريشتى.. لأجلك.

إن أوراقى تزدان بلون خضرة البردى..
وفرعى وجذعى لهما بريق عين القط..
تعالى تحت ظلى الرطب..
ليستريح حلم قلبك الذى به تحلمين.
سترسل سيدتى الجميلة رسالة غرام..
إلى الشخص الذى سيكون سعيدًا..
قائلة: أحضر إلى صديقتى قليلاً..
واجلس معى فى ظلى..
سأجنى لك الفاكهة لسرورك..
وسأقطع الخبز.. وأصب لك النبيذ..
سأقطف لك الأزهار العاطرة النضرة..
فى يوم هذا العيد السعيد.
ستكون سيدتى وحدها مع حبيبها..
وسأصمت عما أرى.. ولا أتفوه بما سمعت.

ومن الأشجار الأخرى التى قدسها الفلاح المصرى القديم شجرة اللبخ *Mimusops schimperi* ، حيث صنع من أخشابها الأثاث والتماثيل، كما كان يؤكل ثمارها، وتستعمل أوراقها فى صناعة الأكاليل الجنائزية. ولقد انقرضت هذه الشجرة من مصر فى حوالى القرن السابع الهجرى، وهى غير أشجار اللبخ المصرى الموجودة حاليًا.

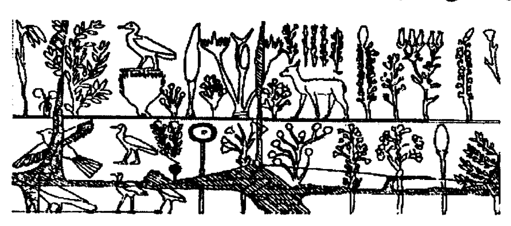
وهناك أشجار خشبية أخرى عرفها الفلاح المصرى القديم، مثل شجرة النبق (*Zizyphus spina*)، حيث عثر على ثمارها فى قبور عصر ما قبـل الأسرات. وشجرة النبق من الأشجار التى مازالت يهتم بها الفلاح المصرى الحديث، حيث تؤكل ثمارها، وتسـتخدم أخشـابها فـى صناعـة الأثـاث والأدوات المنزلية والزراعية. وتزرع أشجار النبق فى القرى بجوار أضرحة أولياء الله الصالحين، ويستحب غسيل الميت بماء فـاتر منقـوع فيـه أوراق النبق!.

ويقترن الاسم العلمى للنبق بالسيد المسيح – عليـه السـلام – حيـث يعتقد أن إكليل الشوك الذى توج به يوم صلبه كان مصنوعًا من الأغصـان الشوكية لهذه الشجرة. وللنبق استخدامات طبية قديمة، فهو يفيـد المعـدة والكبد، ويساعد على التئام الجروح، ويخفـف مـن آلام الظـهر، ويسـاعد على تليين الأعصاب، ويذهب بأوجاع الأذن.

ومن الأشجار الخشبية الأخرى التـى اسـتخدم الفـلاح المصـرى القديـم أخشـابها فـى صناعـــة الأدوات الزراعيـــة، شـــجرة الأثـــل (*Tamarix nilotica*)، وشـــجرة الصفصـــاف (*Salix safsaf*)، وشـــجرة الســـرو (*Cumpressus semprvirensi*).

وعلى الرغم من تنـوع الأشـجار المصريـة القديمـة المنتجـة للأخشـاب، إلا أن الكميـة الناتجـة منـها لم تكـن تكفـى لسـد الاحتياجـات اللازمـــة لصناعـة الأدوات والآلات الزراعيـة، ولا الأثاثـات المنزليـة وبنـاء المنـــازل والمعابد والقوارب وغيرها، لذا استوردت مصر أخشابًا من البلاد المجـاورة لها، مثل خشب الأرز والسرو والصنوبر والبلوط والزان والعرعـر والشـربين من دول غرب آسيا وبلاد الشام.

كما استوردت مصر بعض الأخشاب ذات الرائحة العطرية التى كانت تستعمل بخورًا فى المعابد والمقابر، مثال ذلك خشب الكندر من الصومال وجنوب بلاد العرب، والمر واللبان الدكر، والأصماغ والراتنجيات الناتجة من أشجار الصنوبر. ويوضح شكل (٣٩) صورا لبعض الأشجار والنباتات والطيور والحيوانات التى استوردت فى عهد الملك تحتمس الثالث، والمرسومة على جدران معبد الكرنك.



شكل (٣٩)

ولقد حصل الفلاح المصرى القديم على احتياجاته اليومية من الألياف من أنواع مختلفة من النباتات، وعلى رأسها الكتان *(Linum usitatissimum)* الذى يعتبر أقدم نباتات الألياف فى مصر، حيث عثر على قطع من نسيج الكتان (التيل) فى مقابر مرمدة بنى سلامة فى غرب الدلتا ترجع لعصر ما قبل الأسرات.

واستخدم الكتان فى صناعة ملابس قدماء المصريين، وكذلك فى صناعة الشرائط واللفائف التى تلف بها موميات الموتى. ولم يكن مسموحًا

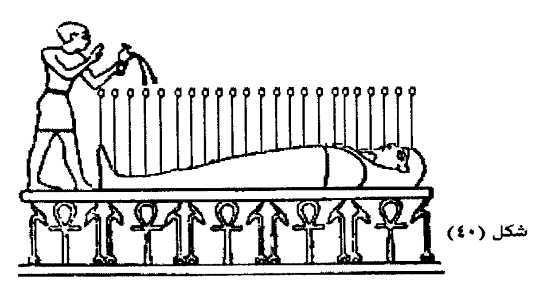
للمصريين بارتداء ملابس صوفية على الجسم مباشرة، نظرًا لاعتقادهم بأن الصوف غير طاهر، لذا اقتصر استخدامه كغطاء للنوم (بطانية)، أو كعباءة تلبس فوق الملابس الكتانية للوقاية من البرد، كما يفعل فلاحو مصر حاليًا، ويطلقون عليها اسم (دفية).

وصنع المصرى القديم من ألياف الكتان حبالاً، وقلوعًا للمراكب، وشباكًا لصيد الأسماك والطيور، وفتائل لإنارة المصابيح، كما استخدمت بذور الكتان فى إنتاج زيت كان يستعمل فى الإضاءة، وفى الطعام، وفى عملية التحنيط، كما كان لهذا الزيت استخدامات طبية متنوعة.

وهناك العديد من نباتات الألياف التى استعملها الفلاح المصرى القديم فى حياته اليومية، مثل الغاب والبوص اللذين استعملا فى بناء أكواخ الفلاحين البسطاء، وفى صناعة السلال والسهام والأثاث والقوارب الصغيرة، ونبات البشنين (اللوتس) الذى استعملت أزهاره فى عمل الأكاليل الجميلة، وبذوره وجذوره كطعام، ونبات البردى الذى صنعت منه أوراق الكتابة، واستخدمت سيقانه فى صناعة السلال والغرابيل والحصر، كما استعملت أزهاره فى الزينة.

ولقد برع الفلاح المصرى القديم فى زراعة محاصيل الحبوب، مثل القمح (*Triticum* spp.)، والشعير (*Hordeum* spp.). وترجع الأساطير المصرية القديمة معرفة الفلاح لزراعة القمح والشعير إلى الإله أوزيريس، إله الزراعة والخصوبة. وتقول الأسطورة إن الإله أوزيريس وجد نباتات القمح والشعير نامية بين النباتات البرية بطريق الصدفة، فدرس طباعها، وعمل على إنمائها.

ومن حبوب القمح والشعير صنعت له زوجته إيزيس خـبزًا. ولـا مـات أوزيريس نبتت سنابل القمح وبعثت مـن جسـده (شـكل ٤٠)، وفـى هـذا يقول «أنا أوزيريس.. أعيش وأنبـت كحبـة قمـح»، لذلـك أعتـبر الفـلاح المصرى القديم سنابل القمح والشعير من الأشـياء المقدسـة التـى يرمـز بـهـا لهذا الإله.



شكل (٤٠)

كما وجدت حبوب شعير وقمح فـى بعـض المقـابر القديمـة منـذ عصـر ما قبل الأسرات، وأيضًا على سنابل شعير منـذ عصـر الأسـرة الخامسـة، واستعمل الشعير فى صناعة الخبز والجعة منذ عهد بناء الأهرامات.

وأنتج الفلاح المصرى القديم كميات وفيرة مـن القمـح والشـعير، زادت عن احتياجات البـلاد، وكـان يعتـبر الفـائض المدخـر مـن هـذه الحبـوب مصـدرًا هامًا لنمـو القـرى وظـهور المـدن، وتنفيـذ المشــروعات الزراعيــة والمعمارية العملاقة التى أدت إلى ازدهار الحضارة المصرية القديمة.

وكانت الأعياد والاحتفالات تقام فرحًا وابتهاجًا بمحصول القمح والشعير الوفير، حيث حرص الفلاح المصرى القديم على تقديم حصة من محصوله كقرابين شكرا للآلهة. وظهرت رسوم للإله نبر Neper – إله الحبوب – ممسك بسنابل القمح ومتوج بها أيضًا. واعتبرت مصر – فى ذلك الوقت – سلة خبز العالم القديم، مصدرة ما يفيض عن احتياجاتها من القمح والشعير إلى عديد من الدول الأجنبية.

واستعملت حبوب القمح والشعير – أيضًا – فى الطقوس الجنائزية التى كان يقوم بها الفلاح المصرى القديم احتفالاً بذكرى أوزيريس خلال شهر كيهك، حيث تنبت الحبوب رمزًا لتجدد الحياة، وتصنع من هذه الحبوب النابتة عقودًا يتحلى بها الأطفال. ومازالت هذه العادة موجودة فى بعض قرى الريف المصرى.

ومن الحبوب الأخرى التى زرعها الفلاح المصرى القديم الذرة الرفيعة (*Sorghum vulgare*)، حيث زرعت فى جنوب الوادى، لذا عرفت باسم حبوب الجنوب، بينما عرف القمح والشعير باسم حبوب الشمال. واستعملت حبوب الذرة الرفيعة فى غذاء فقراء الفلاحين، وكذلك علفا للطيور والحيوانات، بينما كان القمح غذاء الأثرياء.

ولقد اهتم الفلاح فى ذلك العهد القديم بزراعة بعض المحاصيل الزيتية، مثل الكتان والخروع والسمسم والقرطم، حيث كانت تعصر البذور للحصول على الزيت، بينما استخدمت مخلفات عصر هذه البذور (الكُسب) علفًا للماشية.

واستخدم الكتان لأكثر من غرض، فمن بذوره حصل الفلاح القديم على زيت استخدم فى الإضاءه، وأضافه إلى الفول المدمس كما يفعل الفلاح الحديث، ويطلق على ذلك الزيت اسم (الزيت الحار)، بالإضافة إلى السيقان التى كانت تعطن للحصول على الألياف المستخدمة فى صناعة النسيج. ومن بذور الخروع استخرج زيت استخدم فى الإضاءة وفى الأغراض الطبية كملين، وفى علاج أمراض الأمعاء، وكدهان للشعر مما يزيده قوة ولمعانًا.

ومن بذور القرطم والسمسم استخرج الفلاح المصرى القديم زيتًا استخدم فى أغراض مختلفة، فاستخدم زيت القرطم فى علاج لدغ العقارب، بينما استخدمت زهور القرطم فى صباغة الأنسجة، أما بذور السمسم فكانت تخلط بالعجين عند صناعة الكعك كما نفعل نحن الآن، واستعمل زيت السمسم فى الإضاءة، وفى الطعام حيث يعرف الآن باسم (زيت الطيب).

ولم يعرف الفلاح المصرى القديم زيت الزيتون إلا فى عصر الدولة الحديثة – ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ قبل الميلاد) – حيث استخدام فى الإضاءة، وفى الطعام، وفى النواحى الطبية، وخلال التحنيط، وأيضًا فى صناعة العطور.

وانتشر فى ذلك العهد الفرعونى القديم زراعة النباتات البقولية، مثل الفول (*Vicia fabae*)، والعدس (*Lens esculenta*)، والحمص (*Çicer arietnum*)، والترمس (*Lupins termis*)، والبسلة (*Pisum sativum*)، واللوبيا (*Vigna slnesis*)، والجلبان (*Lathyrus sativus*)، والبرسيم الحجازى (*Medica sativa*)، والحلبة (*Trigonella foenumgraecum*).

واعتبر الفول طعامًا شعبيًا منذ بداية العصر الفرعونى، فكان يؤكل بعد طهية بواسطة طمرة فى تراب الفرن الساخن، لذا عرف باسم (متمس)، وحورت الكلمة إلى (مدمس) بعد ذلك. ويشاهد فى مقبرة الوزير (رخ حى رع) وزير جنوب الوادى فى عهد الملك تحوتمس الثالث (١٥٠٤ - ١٤٥٠ قبل الميلاد) رسومات للحاصلات الزراعية التى كانت تقدم للإله آمون، ومنها زكائب من الفول.

كما شوهد فى هذه المقبرة عاملين يهرسان بذور الفول فى هاون مصنوع من جذع شجرة، ثم يصنعان من هذا المهروس عجينة، تقطع على صورة فطائر صغيرة، توضع على لوح خشبى ثم تسوى على النار فيما يشبه أقراص (الطعمية) التى نعرفها الآن، وكذلك كان المصريون القدماء يطهون الفول ويسمونه (بيصورو)، وهى نفسها البيصارة التى يقبل عليها عامة المصريين، دون أن يدركوا أنها كانت طعام أجدادهم القدماء.

واستخدم العدس أيضًا بوفرة كغذاء للمصريين القدماء، وذكر أنه كان يقدم كطعام للفلاحين القدماء المشاركين فى بناء الأهرامات، وكان يعرف باسم (أرس)، كما قدم العدس قربانًا للآلهة. وأيضا استخدم الحمص كطعام بعد تمليحه، وكان يؤكل أخضر فى عيد شم النسيم، وهو ما يعرف الآن باسم (ملانة).

وكذلك الحال فى الترمس الذى كان يؤكل بعد نقعه فى الماء وتمليحه، تمامًا كما نفعل نحن الآن، واستخدم الترمس فى كثير من الأغراض الطبية، نظرًا لفائدته فى علاج الإمساك، ومرضى السكر، كما صنع منه

مراهم لتليين الجلد، وأيضًا استخدم الترمس فى صناعة البيرة لإكسابها طعمًا مقبولاً.

ولقد أقبل المصريون القدماء على تناول هذه النباتات البقولية فى طعامهم، حتى أن قوم موسى - عليه السلام - اشتاقوا إليها بعد خروجهم من مصر، كما ورد فى القرآن الكريم، سورة البقرة الآية (٦١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ
بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

صدق الله العظيم

واهتم الفلاح المصرى القديم اهتمامًا بالغًا بزراعة الخضراوات المختلفة، حيث كانت غذاءً يوميًا له، ومازالت كذلك حتى يومنا هذا. ومن أهم

نباتات الخضر التى زرعت فى مصر خلال ذلك العهد القديم نباتات البصل (*Allium cepa*)، والثوم (*Allium sativum*)، والكرات (*Allium porrum*)، والكرفس (*Apium graveloens*)، والفجل (*Raphanus sativus*)، واللفت (*Brassica rapa* var. *esculenta*)، والملوخية (*Corchorus olitorus*)، بالإضافة إلى الكرنب والقلقاس والبامية والرجلة والبقدونس والشبت والخبيزة والخيار والقثاء والبطيخ والشمام والخس، ولم يعرف الفلاح المصرى القديم البطاطس والطماطم.



شكل (٤١)

ولقد وجدت نقوش عديدة فى مقابر قدماء المصريين تدل على استخدام البصل خلال مراحل التحنيط، كما وجدت لفائف من البصل مع المومياوات. وكان المصريون القدماء يضعون البصل قرب أنف الشخص فاقد الوعى لتنبيهه، كما يفعل فلاحو مصر فى الريف، وكذلك فى بعض المناطق الشعبية، ولنفس الغرض، فهى عادة فرعونية قديمة.

ويعتبر البصل عنصرًا هامًا فى احتفالات الربيع (شم النسيم)، وكان يقدم كميات كبيرة ضمن القرابين المقدمة إلى إله النيل (حابى)، كما كان

يقدم قربانًا للموتى. ويوضح شكل (٤١) كاهنًا مصريًا يصب الماء المقدس على حزم بصل، ويبخرها بمبخرة فى يده تمهيدًا لتقديمها قربانًا مقدسًا.

ومازالت عادة تعليق البصل فوق أماكن النوم، أو تحت الوسائد من العادات القديمة المنتشرة فى ريف مصر عند الاحتفال بليلة شم النسيم، كما يعلق الفلاحون المحدثون حزم البصل على أبواب منازلهم، تمامًا كما كان يفعل أجدادهم فلاحو مصر القدماء.

وللبصل فوائد طبية لا حصر لها، فهو مقو للنظر، ومجلب للنعاس، ويستخدم مخلوطه مع الخل والعسل والنبيذ فى علاج آلام الأسنان، بينما يفيد البصل المسلوق فى علاج آلام المفاصل (اللمباجو)، والدوسنتاريا، ويؤدى أكل البصل على الريق إلى الحفاظ على الصحة، ولين الأعضاء.

كما يعتبر الثوم أحد النباتات المصرية المنشأ، حيث وجد بريًا فى الحقول، واستخدمه المصريون القدماء كطعام وعلاج، وذكر من فوائده أن رائحته تبعد الثعابين والعقارب من المنازل، كما أن أكله يعمل على الشفاء من بحة الصوت، ويطرد الديدان الشريطية من الأمعاء، وكذلك الديدان الأخرى عند تناوله مخلوطًا بالعسل والخل.

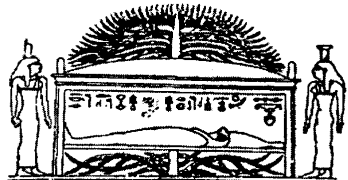
وذكر الثوم فى التوراة (سفر العدد – الإصحاح ١١ – الآيتان ٤، ٥):

«واللفيف الذى فى وسطهم اشتهى شهوة، فعاد بنو إسرائيل أيضًا وبكوا، وقالوا: من يطعمنا لحمًا، قد تذكرنا السمك ا لذى كنا نأكله فى مصر دون مقابل، والقثاء والكرات والبصل والثوم».

واستخدم الكرات فى إيقاف الدم بعد الإجهاض، وفى علاج عض الحيوانات ولدغ الثعابين والعقارب، وفى علاج الجروح. وأيضًا استعمل الكرفس فى علاج حرقان التبول، وصلابة المفاصل، واستخدمت الملوخية فى علاج القلق، وأيضًا للمساعدة فى رفع الروح المعنوية، وفى علاج لدغ الثعابين والعقارب، والبقدونس فى علاج حرقان التبول، وتخفيف آلام الطمث، وعلاج الجروح والدمامل، واستعمل الشبت فى علاج الصداع، والخس فى علاج الضعف والوهن والعنة، وزيادة الخصوبة.

وزرع الفلاح المصرى القديم مساحات شاسعة من حدائق الفاكهة - خاصة العنب - منذ أقدم العصور، حيث شوهدت رسومات لكرمات عنب، وفلاحون يعتنون به ويقطفون عناقيده، وأخرى لمراحل صناعة النبيذ ترجع إلى عهد الأسرة الأولى، كما قدم النبيذ قربانًا إلهيًا، وأيضًا فى الأعياد والمآتم.

وتذكر الأساطير المصرية القديمة أن الإله أوزيريس - إله الزراعة والخصوبة - هو الذى اهتدى إلى زراعة العنب، حيث وجدت نقوش لشجرة عنب تظلل قبره (شكل ٤٢)، لذا انتشرت زراعة العنب فى جميع أنحاء البلاد خاصة شمال الوادى والدلتا.



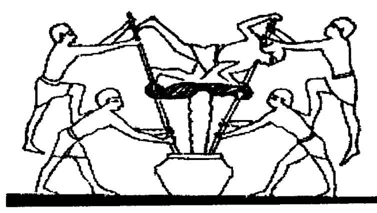
شكل (٤٢)

وكانت عناقيد العنب تجمع وتعصر لصناعة النبيذ، ويتم ذلك عن طريق وضع العنب بعد جمعه فى حوض طويل، ويقوم العمال بهرسة بواسطة القدمين (شكل ٤٣)، ويتم ذلك بين أنغام الموسيقى والتصفيق بالأيدى.



شكل (٤٣)

وهناك طريقة أخرى يتم خلالها وضع عناقيد العنب فى كيس كبير من القماش، ويلف فى اتجاهين متعاكسين بواسطة عصايتين كبيرتين (شكل ٤٤)، وعندئذ يتدفق العصير خلال ثقوب القماش، ويجمع فى إناء فخارى كبير.



شكل (٤٤)

وبعد أن تملأ الجرار الفخارية بعصير العنب المصفى، تسد فوهاتها بسدادات من الطين، يعمل بها ثقوب تسمح للغازات المتجمعة الناتجة

عن التخمر بالخروج، ثم تختم هذه الجرار بواسطة الكتبة، موضحين تاريخ التصنيع – نسبة إلى سنة حكم الملك – ونوع النبيذ المصنوع، واسم المقاطعة المنتجة له.

ولقد تعددت أنواع النبيذ التى كان يصنعها المصرى القديم، واشتهرت بعض مدن الدلتا بإنتاج أنواع منه، مثل النبيذ الأبيض والأحمر، وهناك أنواع أخرى من النبيذ التى كانت تنتج فى بعض مدن جنوب الوادى والواحات.

وكان النبيذ يقدم قربانا للآلهة فى جرار أو أوان خاصة، وكان يسكب على المذبح أمام الضحية الحيوانية، كما كان يستخدم فى الطقوس الجنائزية، وفى صناعة بعض العقاقير المفيدة فى تنظيم التبول، وفى تسهيل عملية الولادة، إلا أن الأنواع القوية منه كانت تسبب الإجهاض.

وأيضًا زرع الفلاح المصرى القديم نخيل الدوم *Hyphaena thebaica* فى عصور ما قبل الأسرات فى الحدائق نظرًا لظلها الوارف، خاصة فى جنوب الوادى، واستخدم القرود المدربة فى جمع ثمارها، حيث كانت تؤكل الطبقة الخارجية من هذه الثمار، كما كانت الثمار تنقع فى الماء لفترة حتى تتخمر، ويصنع منها شراب مسكر. واستعملت جذوع نخيل الدوم فى البناء، والسعف فى صناعة السلال والصنادل، والألياف فى صناعة الحبال والشباك والحصير.

واهتم الفلاح المصرى القديم أيضا بزراعة أنواع أخرى من الأشجار المثمرة فى فترات مختلفة من تاريخه الطويل، مثل نخيل العرجون، وأشجار النبق والخرنوب والتوت والزيتون.

كما زرعت النباتات ذات الأزهار الجميلة في الحدائق الخاصة، وكانت هذه الأزهار تستعمل في الزينة، وفي عمل باقات وأكاليل وعقود جميلة تقدم للضيوف، وتحاط بها المومياوات، وتوضع على توابيت الموتى، وأيضًا تقدم قرابين للآلهة.

وكثيرًا ما شوهدت رسومات ملونة لهذه الأزهار على أرضية القصور الملكية في ذلك العهد الفرعوني القديم، حيث تمثل الأرضية كبركة تطفو على سطحها أزهار اللوتس، وحولها أزهار العتر والأقحوان والنرجس والزئبق الأبيض والغار الوردي والخشخاش والعليق.

وتوضح آثار مدينة طيبة كيف كانت حدائقها الغنية بأزهارها وأشجارها، لوجدناها لا تختلف كثيرًا عن حدائق سيدنا سليمان - عليه السلام - التي جاء وصفها في التوراة (الإصحاح رقم ٢):

«وقد بنيت لنفسي بيوتًا، وغرست لنفسي كرومًا، وعملت لنفسي جنات وفراديس، وغرست فيها أشجارا من كل نوع ثمر، وعملت لنفسي برك مياه لتسقى بها المغارس البينية للشجر».

ويتضح لنا مما سبق، أن الفلاح المصري القديم عرف كيف ينشئ لنفسه زراعة وطنية قوية، منقطعة النظير، بحكم البيئة الزراعية التي كان يعيش فيها، ولم ينجح في الوصول إلى ذلك بتأثير الموارد الطبيعية التي هيأها له وادي النيل الخصب فحسب، بل كان الفضل في ذلك - أيضًا - إلى جهوده التي لم تعرف الملل، وإلى ذكائه الموروث، وإلى حبه للبحث وراء التقدم والابتكار.

ولقد عمل الفلاح المصرى القديم على تحسين وتطوير آلاتــه الزراعيـة، واستثمر أرضه بأفضل الوسائل، مما جعل وادى النيل - فى عـهد الدولـة القديمة - بقعة زاهرة عامرة بالحقول الفسيحة المثمرة فى وقت كانت فيـه جميـع دول العـالم - اللّـهم إلا وادى نـهرى دجلـة والفـرات بـالعراق - لا تزال فى باكورة عهدها بالزراعة.

ولا شك فى أن تقدم مصر وتفوقها زراعيًا كان من أهم العنـاصر الماديـة التى جعلت مصر منارة لمدنية العالم. كما كان الفلاح المصرى القديم يبـذل قصارى جهده لجلب النباتـات والأشـجار المفيـدة مـن الأقـاليم المجـاورة ويزرعها فى أرضه، ويتعهدها بالرعاية حتى تنمو، فـلا تلبث أن تزدهـر وتؤتى أكلها.



٨

الحيوانات والطيور.. في القرية المصرية القديمة

لو انتقل أحد فلاحى مصر القدماء - بواسطة آلة زمنية خرافية! - إلى القرية المصرية المعاصرة التى كان يعيش فيها منذ عدة آلاف سنة، لذهل مما سيرى تحت نفس السماء الزرقاء التى كانت تتقابل مع نهاية حقوله الواسعة، هناك عند خط الأفق.

فهو لن يجد أثرًا للمستنقعات الواسعة، والبحيرات الفسيحة الواقعة بين الحقول والمرتفعات عند حدود الصحراء، والتى كانت تنمو فيها نباتات البردى السامقة، تخفى داخل أدغالها عالمًا فريدًا خاصًا بها يحفل بشتى أنواع الكائنات الحية.

فلقد كانت نباتات البردى - وغيرها من النباتات المائية الأخرى - تنمو متكاثفة لدرجة تعجز أشعة الشمس عن اختراق أغصانها. وبين هذه الأدغال تتخذ العصافير لنفسها مكانًا آمنًا تبنى فيه أعشاشها، وتقوم بتمريناتها البهلوانية اليومية فى الهواء، وسط زقزقتها الموسيقية ، بينما تبدأ إناثها فى وضع البيض وهى آمنة مطمئنة.

وربما تسكن بومة على فرع من فروع نبات بردى سميك دون حراك، مترقبة سقوط الليل، ممنية نفسها بصيد شهى من تلك العصافير المغردة،

بينما يترقب ذلك أيضًا حيوانات مفترسة أخرى تنشط ليلاً، مثل قط الذباء، والقط الوحشى.

وفى سكون الليل ، تزحف هذه الحيوانات المفترسة إلى أعشاش العصافير، فيهب الذكر ووراءه أنثاه للدفاع عن عشهما، ويقاتلان بشجاعة ضد المعتدى، بينما تصرخ صغار العصافير فى فزع ورعب، محركة أجنحتها الخالية من الزغب فى يأس وقنوط.

ولا يسكن سطح ماء المستنقع ليلاً أو نهارًا، فبين الحين والحين تظهر أسماك رشيقة تقفز فى جذل بين جذور النباتات المائية، مثل أسماك البورى، والشال والبنى وقشر البياض والبلطى، والتى لا تختلف كثيرًا عن الأسماك النيلية التى نأكلها الآن، اللهم إلا أنها غير ملوثة بالمبيدات ! .

وإذا أمعنت النظر عند حواف المستنقع، قد يصادفك الحظ فتشاهد أنثى عجل البحر وقد اختارت لنفسها ركنًا هادئًا لتضع فيه مولودها، بينما يتربص بها تمساح خبيث، سيىء النية، ينتظر اللحظة المناسبة ليزدرد المولود دون رحمة أو شفقة، إلا أن ذكر عجل البحر لا يغفل عن أنثاه الراقدة فى سكون، فهو يدور حولها، ويزعق بأعلى صوته منبهًا من حوله أنه موجود.

وقد يتهوّر ذلك التمساح المفترس ، ويهجم - فى لحظة طيش - لالتهام المولود الصغير من عجل البحر، عندئذ يهب الذكر ليحوّل دون

ذلك، وهنا تقوم حرب ضروس، بين تمساح نهم شرس، وذكر عجل ذى أنياب قوية قد تشطر جسم التمساح إلى نصفين.

وفى خضم هذه المعركة ، تفزع أسراب الطيور ، وتسرع بالطيران من ساحة القتال، فتحدث جلبة فى الجو، مطلقة صيحات الفزع والتحذير كل بلغتها، مثل طيور القاوند وأبى قردان وأبى ملعقة والنكات ومالك الحزين، بالإضافة إلى أنواع البط والأوز والشرشير والبجع.

ولم يكن الليل أكثر هدوءًا من النهار، فعلى ضفاف تلك المستنقعات والبرك والبحيرات المتصلة بالنيل، والتى كانت تطل عليها القرى المصرية القديمة، كانت ذكور الضفادع تشق سكون الليل بنقيقها القوى الذى لا ينقطع، بينما يصدر عن أحد أفراس النهر الراقدة بين أزهار اللوتس، وأعواد الحلفا غطيطًا مزعجًا، إلا أن تلك الأصوات لم تكن تزعج تمساحًا مد جسمه بجانب شجرة صفصاف واستسلم لنوم عميق.

وفى هذا العهد الفرعونى القديم ، لم تكن الصحراء جرداء كما نحب أن نصفها فى وقتنا الحالى، بل كانت تلك الصحراء عامرة بالحياة البرية، حيث كانت الأمطار تسقط بغزارة أحيانا، فتنمو شتى أنواع الحشائش، التى ترعى عليها الحيوانات العشبية البرية مثل الماشية والحمير البرية، والغزلان المصرية، والظباء والوعول على اختلاف أنواعها، وكذلك الأغنام البرية، والماعز، والنعام، وغير ذلك من حيوانات كثيرة كانت تتجول بحرية وسط هذه الصحارى.

وفى تلك المناطق الشاسعة ، كانت هناك حيوانات متوحشة تتغذى على الحويانات العشبية الحية، أو تأكل جثثها فتخلص البيئة من أضرار العفونة، مثال ذلك الكلاب البرية، وابن آوى والضباع المخططة والفهود والقطط البرية والأسود.

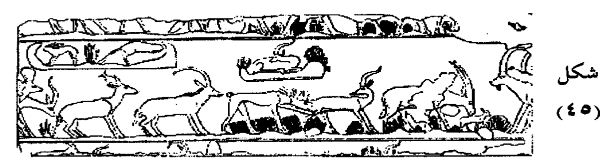
ووسط جحور الجبال والهضاب الصخرية، كانت تختبىء بعض الحيوانات البرية الصغيرة، مثل الثعالب والأرانب والقنافد، وكذلك حيوانات النمس والجربوع والضب، بينما تخرج السحالى والأبراص فى جماعات مستلقية تحت حرارة الشمس طلبًا للدفء، وجوارها تتراص بعض الطيور الجارحة تراقب الحيوانات حولها، تختار - فى تؤدة - فريستها التالية.

إن فلاحنا المصرى القديم لن يشاهد ذلك العالم العامر بالحياة البرية الذى كان يعيشه فى عصره الذهبى، فلقد جفت السهول حول نهر النيل من مياهها، واختفت المستنقعات الشاسعة، وأصبحت أدغال نباتات البردى واللوتس أثرًا بعد عين، وأخذت معها الحيوانات والطيور البرية التى كانت مألوفة لفلاحنا القديم.

وربما يسبب ذلك التغير الكبير فى البيئة تكديرًا للفلاح المصرى القديم الذى يزورنا ونحن نستقبل الألفية السابعة من تاريخ مصر الطويل الحافل، إلا أن هناك أخبارًا ستسعده، مثل اختفاء الوعول البرية التى كانت تأتى من أطراف الصحراء وتهاجم أجران ومخازن القمح والشعير وتأكلها، وكذلك اختفاء أفراس النهر التى كانت تهاجم حقول القمح المجاورة للنيل والمستنقعات وتدوسها بأرجلها، وتأكلها.

وإذا حاول ذلك الفلاح المصرى القديم زيارة الصحارى المتاخمة للحقول، فإنه لن يجد أسراب الحيوانات البرية التى كانت تمرح بها، ويجد فيها هذا الفلاح صيدًا وافرًا وغذاءً شهيًا طول أيام السنة. وربما تسعف الذاكرة ضيفنا، فيحكى لنا - نحن أحفاده المعاصرين - عن ذكرياته فى سالف العصر والأوان، ومغامراته فى القنص والكر والفر.

فهناك قائمة كبيرة من الحيوانات البرية التى كان يصطادها أجدادنا من الفلاحين المصريين القدماء، مثل الثيران الوحشية ذات القرون القصيرة - وهى تختلف عن تلك الثيران المستأنسة ذات القرون الطويلة التى كانت تربى فى حظائر ملاك الأراضى الزراعية، وكذلك الأيائل والظباء والمها. وهناك نقش وجد فى طريق هرم وناس، يمثل مجموعة من الحيوانات البرية التى كانت تصاد، وهى من اليمين (شكل ٤٥): وعل، ومهاة بيسة، وغزال آدم، ومهاة أبو حراب، وتيتل، وغزال إزابل.



شكل (٤٥)

وكانت التياتل - وهى نوع من البقر الوحشى كبيرة الرأس وقصيرة القرنين - من الحيوانات التى يجدّ الفلاح المصرى القديم فى طلبها، حيث تتجمع هذه الحيوانات فى قطعان صغيرة تتراوح بين خمسة وعشرة أفراد، خاصة فى الأماكن الصحراوية وافرة العشب. وفى مثل هذه المناطق

كانت تمرح – أيضًا – أسراب الغزلان البرية، والوعول التى تعرف باسم (تيس الجبل)، والكباش البرية، والماعز ذات القرون الحلزونية، بالإضافة إلى أعداد لا حصر لها من الأرانب والخنازير البرية.

وعلى الرغم من أن فلاحنا المصرى القديم كان يصيد هذه الحيوانات العشبية البرية ويأكلها، إلا أنه كان يعتبر الخنزير حيوانًا نجسًا، وفى هذا يقول هيرودوت: (إذا لمس أحدهم وهو سائر خنزيرًا، وجب عليه أن يغطس فى ماء النهر هو وثيابه حتى يتطهر، أما رعاة الخنازير فغير مسموح لهم دخول المعابد، ويزوجون بناتهم لرعاة خنازير مثلهم، ولا يتزوجون هم إلا من عائلات رعاة الخنازير).

ولم تكن تلك الحيوانات العشبية البرية مصدرًا جيدًا للحوم للمصرى القديم فحسب، بل تعلم الفلاح المصرى كيف يحصل منها على فراء وثير، وعرف دبغ الجلود منذ العصر الحجرى. ولقد استعمل الجلد السميك فى صناعة النعال والدروع. وقرب الماء وغير ذلك من مصنوعات جلدية أخرى.

وإذا حدثنا ضيفنا – الفلاح المصرى القديم – عن مغامراته فى صيد تلك الحيوانات البرية، لأوضح لنا كيف كانت بعض هذه الحيوانات المفترسة تفتك به وبحيواناته خاصة فى القرى القريبة من حدود الصحراء، فكان الفلاحون يخرجون فى جماعات يطاردون الفهود ويقتلونها، ثم يستعملون جلودها فى صناعة أغطية للمقاعد، أو تستعمل كبساط على الأرض كما يفعل فلاحو مصر المحدثين بفراء الأضاحى من الخراف.. مع الفارق !

ولقد اعتبر التمساح أحد أعداء الفلاح المصرى القديم منذ فجر التاريخ، وكان يمثل إله الشر (ست) فى بعض المناطق، بينما كان يقدس فى مناطق أخرى بصفته الإله سوبك Sobek إله الخير (شكل ٤٦). كما قدس الفلاح المصرى القديم ثعبان الصل السام، الذى يصل طوله إلى نحو مترين، نظرًا لتغذية هذا الثعبان على الفئران التى كانت تفتك بالحبوب المخزونة فى الصوامع، لذا اعتبر ثعبان الصل رمزًا لإله الحصاد (رننوت).



شكل (٤٦)

ومع بداية عصر الأسرات المصرية القديمة – منذ نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد – اهتم الفلاح المصرى القديم بتربية قطعان الماشية، مثل الماعز والضأن، والماشية الكبيرة مثل الثيران طويلة القرون، وكذلك الحمير التى كانت وسيلة النقل الوحيدة فى ذلك الوقت.

ويمكننا اعتبار الحمار الأفريقى جزءًا من ماضى مصر الجغرافى والتاريخى، حيث قطن هذا الحيوان منطقة الصحراء فى العصور الفرعونية القديمة، وظل خادمًا للإنسان منذ ذلك العهد حتى الآن. فإذا ما أراد الفلاح المصرى القديم درس القمح، أو حمل حزم القمح، ساق

الحمير أمامه إلى الحقل، صائحًا فيها، ملوحًا بعصاه فى الهواء، غير متردد فى استخدامها إذا اقتضى الأمر.

وما زال الحمار يقوم بدوره فى حمل الفلاحين المعاصرين، أو يحمل عنهم متاعهم ومحصولاتهم، أو جارًا عرباتهم، تمامًا كما كان يفعل أسلافه من الفلاحين القدماء، محتقرين ذلك الحيوان الصبور، حتى اعتبر حيوانًا غير طاهر، واتخذ من الحمار – فى ذلك الوقت – رمزًا للإله ست إله الشر!.

وفى حين استطاع الفلاح المصرى القديم استئناس العديد من الحيوانات البرية، فشل فى استئناس الوعول. ويقول فلاح لابنه سيئ السلوك فى بردية قديمة:

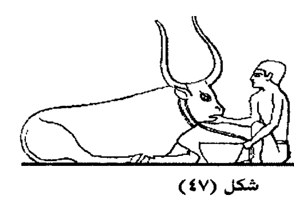
«أنت أردأ من وعل الصحراء، الذى يعيش دون أن يستقر له قرار، ولا يعرف كيف يحرث الأرض؟، ولا كيف يطأ أرض الأجران بانتظام؟، ويكتفى أن يعيش على مخلفات الثيران، ولو أنه ليس من فصيلتهم».

وسوف يلاحظ – أيضًا – ضيفنا الفلاح المصرى القديم مدى فقر المراعى الطبيعية لدينا الآن، بالقياس بما كان عليه وادى النيل والصحارى المجاورة له فى عهده السعيد. وأسباب ذلك واضحة، فلقد اختلف المناخ الآن عما سبق، وندرت الأمطار، وحجزت مياه الفيضان خلف سد أسوان والسد العالى، وهذا أدى إلى انحسار المساحات الشاسعة التى كانت تنمو

فيها الحشائش الطبيعية ، والتى كان يطلق فيها الرعاة – حينذاك – قطعانهم الكبيرة من الحيوانات لكى تنمو وتتكاثر.

كما أن كثيرًا من الأراضى المجاورة لنهر النيل كانت مغطاة بالمستنقعات التى ينمو فيها نباتات البردى والبشنين بكثرة. ووفرت هذه النباتات – حينذاك – الغذاء والمأوى لكثير من الحيوانات والطيور البرية خاصة فى فصل الصيف عندما ينخفض ماء النيل، وكانت هذه الحيوانات والطيور غذاءً ميسورًا للفلاح المصرى القديم.

ولم يدخر ذلك الفلاح جهدًا فى استئناس قطعان الثيران والأبقار، سواء للحصول على لحمها ولبنها (شكلى ٤٧ و ٤٨)، أو لمساعدته فى جر المحراث ودراس الحبوب. وكانت بيوت أثرياء الفلاحين القدماء بها حظائر للثيران، غير بعيدة عنهم وعن مخازن الحبوب، بينما كان بسطاء هؤلاء الفلاحين يعيشون فى بيوت متواضعة مصنوعة من الطين بالقرب من حظائر الثيران للعناية بها، وحمايتها من اللصوص.

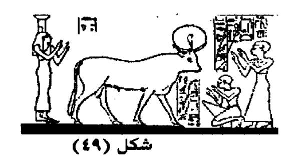


شكل (٤٧)



شكل (٤٨)

ولقد قدس الفلاح المصرى القديم البقرة، لأنـها معطيـة اللـبن، ولأنـها الأم السماوية للشمس، والبقرة الصغيرة ذات الفم الطـاهر، وزوجـة الشـمس الـذى كـان (ثـور أمـه) وأطلقـوا علـى البقرة اسم حـاتحور Hathor، ولقبـها (هذه البقرة التى هـى السـماء حارسـة عالم الموتى، ومعطية فرعون اللبن) (شكل ٤٩).



شكل (٤٩)

وكان الثور يمثل للمصرى القديم رمـز الشـجاعة والقـوة التـى لا يقـف أمامها شىء، فالثور القوى كان هو التعبير المصرى الذى يوصف به الملـك منذ أقدم العصور، كما كان المعتاد أن يصور الملك فـى تلـك العصـور علـى شكل ثور يقوم بهدم جدران المدينة بقرنيه، أو يطأ عدوه بحوافره.

وكان الفلاح المصرى القديم يهتم بحيواناته أيما اهتمام، فكان يقودهـا إلى الحقول والمراعى المجاورة له، ويتركها حـرة طليقـة، أمـا الحيوانـات سريعة العدو - كـالوعول والظبـاء والغـزلان - فكـانت تربـى فـى حظـائر مقفولة عليها، وكذلك الطيور مثـل الكراكـى والبـط والأوز، فكـان الفـلاح يجزل لها فى الحبوب، كما بنى أبراجًا خاصة للحمام.

وفى حالات كثيرة كانت المراعى بعيدة عن القريـة التـى يسـكن فيـها الفلاح، وقد يفصلها عنها مستنقعات من الميـاه الضحلـة أو العميقـة التـى يجب عبورها على أية حال. وكان عبـور مثـل هـذه المسـتنقعات بقطعـان الماشية من الأمور الشاقة، ففـى الوقـت الـذى يمكـن للحيوانـات الكبـيرة

العبور سباحة، فإن العجول الصغيرة تكون معرضة للغرق. وفى مثل الحالات السابقة، كان من الواجب على الفلاح حمل العجل الصغير على ظهره، قابضًا بيديه على أرجل العجل، بينما تسير البقرة خلفه وهى تخور، وقد جحظت عيناها من القلق على وليدها.

وإذا كان الماء عميقًا وتحيط به أحراش النباتات المائية الكثيفة، خشى الفلاح على نفسه وماشيته من الظهور المفاجئ للتماسيح، إلا أنه كان يتسلح بتعاويذ سحرية خاصة يقولها، فيتحول هذا العدو الرهيب إلى نبات لا ضرر منه !.

واهتم الفلاح المصرى القديم بجز صوف الغنم ثلاث مرات كل عام، كما كانت تغسل أجسامها بليف النخل مرة كل يوم عند الظهيرة، وعندما يشتد البرد كانت العجول الصغيرة تغطى بحصير من القش، حتى حيوانات الحمل - مثل الحمير - كانت توضع على ظهورها أغطية سميكة (بردعة) مربوطة من وسطها لحماية جسمها من الجروح والكدمات، وما زال فلاحنا المعاصر يفعل ذلك، ولنفس السبب.

كما كان الرعاة يفتخرون بماشيتهم، ويحلونها بالزينات والقلائد التى كانت تستعمل أحيانًا كتعاويذ سحرية لمنع الحسد، وعندما كان يذهب بها للرعى، يضع فى قلادتها زهرة من البشنين زينة لها.

وفى نقوش على جدران مقبرة باحرى، وهو أعظم رجال الملك تحتمس الأول (١٥٣٥ قبل الميلاد) رسومات توضح قطعان الماشية التى كان الكاتب يحصى عددها، وكانت تشمل ثيرانًا وأبقارًا وعجولاً وحميرًا

وماعزًا وجداء وخنازير، وقد كانت بعض هذه الماشية راقدة على الأرض لتكوى بعلامة مميزة (شكل ٥٠).



شكل (٥٠)

واهتم الفلاح المصرى القديم بتنمية إنتاجه من الماشية، ففى إحدى مقابر (دشاشة) نشاهد رسمًا لثور ذى قرنين على شكل هلالين يلقح بقرة ذات قرنين ملتويين، وفى مقابر (دير الجبراوى) نشاهد بقرة ذات قرنين جميلين يلقحها ثور عديم القرون، وكانت هذه الماشية تلد فى الحقول والمراعى تحت رعاية الفلاح لها.

واتبع الفلاح المصرى القديم أسلوبًا فنيًا فى حلب أبقاره، فكان يربط ذيلها قبل الحلب حرصًا على النظافة، وكان لا يحلب الحلمات منفردة، بل كان يحلب كل حلمتين أو أكثر فى نفس الوقت، ويجتهد ألا يترك حلمة دون حلب حتى لا يؤدى ذلك إلى تقليل إنتاج اللبن بشل الثدى الذى يهمل حلبه.

كما عامل الفلاح حيواناته برفق، خاصة صغارها ، وكان الراعى يقود ماشيته إلى الحقل وهو ينشد لها الأغانى التى كان لها تأثيرًا إيجابيًا، خاصة على البقرات وقت حلبها، حيث تهدىء أعصابها ويدخل عليها السرور، فتزيد إنتاجها من اللبن، وهذا ما أثبته البحث العلمى بعد آلاف السنين !.

وكذلك استطاع المصرى القديم استئناس بعض الحيوانات الأخرى كالكلاب والقطط والقرود، وكان يستخدمها فى أغراض شتى، فاستخدمت الكلاب فى صيد الفرائس، وفى الحراسة، وفى حماية الماشية من الحيوانات المفترسة، وفى ساحات القتال. وما زالت الكلاب تستخدم فى الحراسة فى شتى أنحاء العالم.



شكل (٥١)

وكان قدماء المصريين يهتمون بتربية نوعين من القطط، نوع كبير الحجم يمثل الإلهة باستت Bastet (شكل ٥١)، ونوع آخر صغير الحجم يشبه القطة المألوفة المعاصرة. وكانت القطط تستخدم فى صيد الطيور والفئران.

وعمل الفلاح المصرى القديم على استئناس بعض الطيور البرية منذ عهد ما قبل الأسرات، مثل النعام والكراكى والأوز والبط، كما كان يقوم بإطعامها بطريقة التلقيم الصناعى حتى تسمن (شكل ١٩ و٢٠)، إلا أن ذلك لم يمنعه من اصطياد بعض الطيور البرية، مثل طائر أبى منجل

ومالك الحزين وأبى ملعقة والبجع وأبى مغازل والقاق واليمام والقنابر والحمام والسمان والسلوى والبط والقطا، حيث كانت المستنقعات تعج بمثل هذه الطيور، ويجد فيها صائدو الطيور ما يشتهونه.



شكل (٥٢) طائر (أبو منجل)، وطائر (مالك الحزين)

وكان بيض هذه الطيور - سواء المستأنسة أم البرية - يجمع ويؤكل، كما يعتبر الفلاح المصرى القديم أول من اخترع التفريخ الصناعى، حيث كان يفرخ البيض بالحرارة بنفس الطريقة المستعملة حاليًا. كما كان البيض يقدم ضمن قرابين الموتى. وفى رسومات جدارية لإحدى مقابر عصر الإمبراطورية، رجلاً أمامه بضع بجعات وسلتين مملوءتين بالبيض يقدمها قربانًا (شكل ٥٣).



شكل (٥٣)

واستعمل ريش النعام حلية للرأس منذ عصر ما قبل الأسرات، ونشاهد ذلك فى نقوش كثير من المقابر، حيث يحلى غطاء رأس أوزيريس ريشتين نعام على جانبيها، وكذلك الاثنان والأربعون قاضيًا الذين يجلسون فى قاعة المحاكمة، وكل منهم يحمل على رأسه ريشة نعام، علامة على العدل والحق.

٩ الآفات الزراعية

على الرغم من اهتمام الفلاح المصرى القديم بمزروعاته المختلفة، فإنه كان يعانى فى كثير من الحالات من الآفات الحشرية، والميكروبات الضارة، والطيور مثل العصافير، والحيوانات البرية صغيرها - مثل الفئران - وكبيرها - مثل أفراس النهر - التى كانت تهاجم ما يزرعه، مما يقلل المحصول أو يدمره تمامًا.

ولقد فطن الفلاح المصرى - فى ذلك العهد الموغل فى القدم - إلى سبب خسائره فى المحصولات الزراعية، وتعرف على بعض الحشرات الضارة مثل الجراد، وجاهد قدر استطاعته للوقاية منها، أو القضاء عليها نهائيًا، أو على الأقل التقليل من آثارها الضارة، فنجح تارة، وفشل تارات أخرى، ومازال هذا شأنه حتى يومنا هذا.

وتدل النقوش الفرعونية القديمة على تعرض بعض الحاصلات الزراعية وأشجار الفاكهة بصفة خاصة إلى يرقات دودية الشكل، أطلق عليها الفلاح المصرى القديم اسم (جدفت) أو (زدفت)، كما كانت هذه اليرقات الصغيرة تهاجم الحبوب والثمار المخزونة أثناء تخزينها وتتلفها.

وفى بردية قديمة وجهها كاتب فرعونى إلى أحد تلاميذه يرغبه فى احتراف مهنة الكتابة، ويعدد عيوب المهن الأخرى ومنها الزراعة فيقول:

«لقد سرق الدود نصف الحبوب، ثم أكل فرس النهر النصف الآخر، وهناك عدد لا يحصى من الفئران تسعى فوق الحقول، كما هبطت جحافل الجراد، أما الماشية فتأكل، والعصافير تسرق، ولكن واحسرتاه على الفلاح، فما بقى له من حبوب على أرض الجرن قد سرقها اللصوص، كما نفقت ثيرانه من الدرس والحرث».

وهكذا يظهر الكاتب حال الفلاح المصرى القديم، ومشاكله مع أعداء الزراعة التى كانت تزعجه وتهدد محصوله، وقد يكون قصد الكاتب بكلمة الحبوب هنا محصول القمح أو الشعير، وهو مازال فى مرحلة طرد السنابل فى الحقل، وهى المرحلة التى تكون مغرية لأفراس النهر أن تهاجم الحقول وتتغذى على المزروعات.

وأيضًا ليس من الواضح قصد الكاتب بكلمة (دود)، ربما تكون يرقات حشرية، فإذا كانت كذلك فمن المحتمل أن تكون يرقات الدودة القارضة *Agrotis ipsilon*، وهى آفة خطيرة متعددة العوائل النباتية المزروعة فى الحقول، مثل البرسيم الحجازى والمصرى والعدس والقمح والحلبة والحمص والترمس.

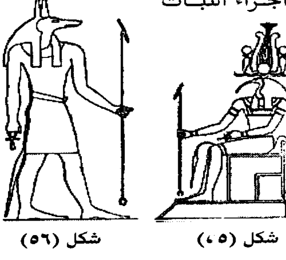
وما زال الفلاح المعاصر يعانى مما عانى منه أجداده الأقدمون من تلك الآفة الضارة التى تقرض بادرات النبات فوق مستوى سطح الأرض، بينما تظل هذه اليرقات مختبئة أسفل ساق النبات.

ولقد اعتمد الفلاح المصرى فى جميع العصور على الطيور المتغذية علـى الحشـرات والديـدان فـــى تقليـــل أعدادها من التربة، مثـل طيـور أبـى منجـل والكركـى وأبـى قـردان، لـذا قدس الفلاح المصرى القديم طائر أبى منجل لهذا السبب، وكان يدفن فـــى توابيب من الخشب، وتبنى له المقابر الخاصة تكريمًا له (شكل ٥٤)

شكل (٥٤)

وهناك ديدان أخرى تهاجم سنابل القمح والشعير، مثـل الـدودة التـى تعرف باسـم *Cnephasia pyrophagana*، التـى تتغـذى علـى مكونـات الأزهار وتقضى عليها، فتظهر السنبلة فارغة من الحبوب.

ومن الحشـرات الضـارة الأخـرى التـى عرفـها الفـلاح المصـرى القديـم حشرات الجراد (شكل ٥٧) ، والتى عرفها باسم (سـخم)، حيـث عـانى مـن أضرارهـا وقدرتـها علـى التـهام أجـزاء النبـات الخضــراء، فتبيـــد الحقـــول والحدائـق ولا تتركـها إلا حطـب يـابس. وكـان الفلاحـون القدمـاء يعتقدون أن غارات الجراد ناتجة عـن غضـب الآلهـة عليـهم، لـذا كـانوا يلجئـون إلى هـذه الآلهــة، مثل الإله أنوبيس الذى يرمز لــه بحيـوان ابـن آوى (شـكل ٥٦)،



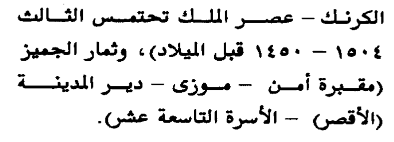
شكل (٥٦)　　شكل (٥،)

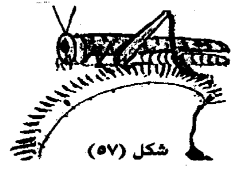
والإله تحوت الذى يرمز له بطائر أبى منجل (شكل ٥٥) لدفع هذا الخطر الماحق. وتعود الفلاح المصرى القديم تقديم قرابين لهذه الآلهة، وعمل تمائم، وإقامة شعائر وتعاويز دينية معينة حتى تلتهم هذه الآلهة تلك الحشرات الضارة.

ولقد شوهدت حشرات الجراد فى كثير من الرسومات الجدارية فى مقابر قدماء المصريين، مثال ذلك شكل يوضح جرادا يلتهم نباتات خضراء فى مقبرة (مر يروكا) فى سقارة، ترجع إلى عصر الدولة القديمة (٢٧٣٠ – ٢٤٢٠ قبل الميلاد)، وصورة لجرادة ناشرة جناحيها، وقنفد خارج من جحره ممسكًا بجرادة أخرى فى فمه فى مقبرة (بتاح حتب).

وفى عصر الدولة الوسطى (٢١٤٠ – ١٧٨٥ قبل الميلاد) شوهدت مناظر لجراد فى مقابر بنى حسن بالمنيا، وأيضًا فى عصر الدولة الحديثة (١٥٨٠ – ١٠٨٥ قبل الميلاد) شوهدت رسومات لجراد يطير فى اتجاهات مختلفة على جدران مقبرة (ناخت) بالأقصر، وكذلك فى مقبرة (عح – حتب – ١٥٨٠ قبل الميلاد) نشاهد أربع جرادات تلتهم نباتات خضراء.

وشوهد الجراد يهاجم بعض بساتين الفاكهة مثل العنب (معبد الكرنك – عصر الملك تحتمس الثالث ١٥٠٤ – ١٤٥٠ قبل الميلاد)، وثمار الجميز (مقبرة أمن – موزى – دير المدينة (الأقصر) – الأسرة التاسعة عشر).





شكل (٥٧)

ولقد ذكر الجراد فى التوراة (سفر الخروج - الإصحاح العاشر - الآيات ٣ - ١٩):

«فدخل موسى وهارون إلى فرعون مصر، وقالا له: هكذا يقول الرب إلى متى تأبى أن تخضع لى، أطلق شعبى ليعبدون، فإنه إن كنت تأبى أن تطلق شعبى، ها أنا أجىء غدًا بجراد على تخومك، فيغطى وجه الأرض حتى لا يستطاع نظر الأرض، ويأكل الفضلة السالمة الباقية لكم من البرد، ويأكل جميع الشجر النابت لكم فى الحقل».

ثم قال الرب لموسى:

«مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد، فمد موسى عصاه على الأرض، فجلب الرب ريحًا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل، ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد، فصعد الجراد على كل أرض مصر، وحل فى جميع تخوم مصر شىء ثقيل لم يكن قبله جراد هكذا مثله، ولا يكون بعده كذلك».

«وغطى كل الأرض حتى أظلمت الأرض، وأكل جميع عشب الأرض، وجميع ثمر الشجر الذى تركه البرد، حتى لم يبق شىء أخضر فى الشجر، ولا فى عشب الحقل فى كل أرض مصر، فخرج موسى من لدى فرعون، وصلى إلى الرب، فرد الرب ريحًا غربية شديدة جدًا، فحملت الجراد وطرحته إلى بحر سوف (البحر الأحمر)، ولم تبق جرادة واحدة فى كل تخوم مصر».

وفى سورة الأعراف، يقول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم:

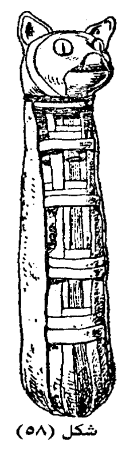
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ صدق الله العظيم

ولم يتوان الفلاح المصرى القديم عن مكافحة الجراد ومطاردته بكل الطرق، فكان الأطفال يدقون على الأوانى المعدنية مصدرين أصواتًا مزعجة لطرده من الحقول، وكذلك مطاردته بالعصى، وقد يوقد الفلاحون نارًا كثيفة الدخان، ثم يجمع الجراد ويحرق.

وكانت أسراب الجراد الصحراوى (*Schistocera gregaria*) تأتى من السودان والحبشة، وتغير على مصر فى فصل الربيع، بينما تغير الأسراب الآتية من شمال أفريقيا على مصر فى فصل الخريف، وذلك تبعًا لاتجاه الرياح التى تساعد على الهجرة. وهناك نوعٌ من الجراد المصرى (*Anacridium aegyptium*)ينتشر بأعداد قليلة فى صحارى مصر والواحات.

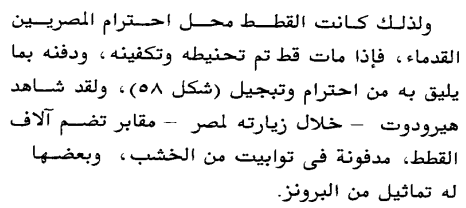
وسببت الفئران – ولا تزال – خسائر لا حصر لها لممتلكات ومحاصيل الفلاح المصرى القديم، وكانت هذه الفئران تعرف باسم (بنو). وهناك نوعان من هذه الفئران، الأول هو الفأر المنزلى الذى يسبب خسائر جسيمة

لما يخزنه الفلاح فى داره وجرنه، والثـانى هـو فـأر الحقـل الـذى يتلـف الحاصلات الزراعية فى الحقول.



شكل (٥٨)

وحيث أن القطط والثعابين من ألد أعداء الفـئران، فلقـد قدسـها الفـلاح المصـرى القديـم. وتـدل النقـوش الموجودة فى مقبرة (خنوم حتب) ببنى حسن، والتى ترجع إلى عصر الدولة الوسطى على تحفـز قـط بفـأر. ومن الوصفات التى وردت فى بردية (إبـرس Ebers) لمكافحة الفئران وضـع دهـن القـط فـى مكـان تواجـد الفئران، فتهرب منها!.



ولذلـك كـانت القطــط محــل احــترام المصريــين القدماء، فإذا مات قط تم تحنيطه وتكفينه، ودفنه بما يليق به من احترام وتبجيل (شكل ٥٨)، ولقد شـاهد هيرودوت - خلال زيارته لمصر - مقابر تضـم آلاف القطط، مدفونة فى توابيت من الخشب، وبعضـها له تماثيل من البرونز.

كما كانت الطيور تسبب خســائر فادحـة لمحـاصيل الحبـوب كـالقمح والشعير، فتهاجم السنابل فى الحقول، وتلتقط الحبوب خـلال الـدراس، ولا تعدم وسيلة للوصول إلى الحبوب المخزنة فى الصوامع. ومن أنواع هذه الطيور العصافير والحمام والسمان. وكانت ثمـار الفاكهـة عرضـة لمهاجمـة هذه الطيور، لذا اتبع فلاحو مصر القدماء شتى الوسائل لمكافحتها.

ولقد رسم فنانو مصر القدماء بعض الطيور التى كـانت تـزور مصـر فـى الربيع والخريف، وتهاجم ثمار الفاكهة مسببة لها خسائر كبـيرة، مثـال ذلك طيور عصفور الصفارية، والعصفور الدورى. وكان الصيادون يـتربصون لهذه الطيور بشباكهم الكبـيرة ويصطادونـها، فيتخلصـون مـن مشـاكلها، ويحصلون على غذاء دسم شهى فى الوقت نفسه.

١٠ وماذا عن واقعنا الزراعى المعاصر؟

وهكذا كانت مصر أيام الفراعنة فى أبهى عصورها، حيث نهضت فيها الزراعة لفترة استمرت أكثر من أربعين قرنًا، أخلص خلالها الفلاح المصرى القديم، وأحب عمله إلى درجة العشق، وتفنن فى استصلاح أرضه، وابتكر وسائل رى متنوعة، وأبدع فى العناية بمحاصيله خاصة القمح، حتى كانت حقول القمح تمتد من مستنقعات الدلتا حتى الشلال الأول بجنوب الوادى، وكانت مصر فى ذلك العصر الذهبى تصدر كميات كبيرة من فائض إنتاجها من القمح حتى أطلق عليها - حينذاك - «سلة خبز أوربا»!.

وقدرت المساحات المنزرعة فى مصر خلال العصر الفرعونى بنحو سبعة ملايين فدان، كانت منزرعة بشتى المحاصيل والخضراوات والفاكهة، فى الوقت الذى لم يتجاوز فيه عدد السكان عن خمس ملايين نسمة، معظمهم من فلاحى الأرض، وهذا يعنى أن كل شخص على أرض مصر - فى ذلك العهد السعيد - كان يخصص لإطعامه وكسائه نحو فدان ونصف، وهذا يوضح لنا بجلاء مدى الوفرة التى كان يعيش فيها المواطن المصرى القديم، ومدى الرخاء الذى كانت تتمتع به الدولة.

والآن، ونحن فى بداية الألفية السابعة من تاريخنا المصرى الطويل، مازلنا نعيش على نفس المساحة الزراعية التى كان يعيش عليها أجدادنا

القدماء، فعلى الرغم من تقدم وسائل استصلاح الأراضى، واهتمام الدولة بذلك أيما اهتمام، فلم تزدد مساحة الأراضى الزراعية عن تلك السبعة ملايين فدان، بينما قفز تعداد سكان مصر المحروسة إلى نحو سبعين مليون نسمة، يعيش نصفهم فى الريف، بينما يسكن النصف الآخر المدن التى لا تزرع ولا تحصد.

إننا نتكدس يومًا بعد يوم على نفس الرقعة الزراعية التى وهبها لنا النيل، والتى كان يزرعها أجدادنا فلاحو مصر القدماء، والسبب فى ذلك النمو السكانى الشديد الذى لم يستطع التوسع الأفقى أن يلاحقه، حتى تلك المشروعات الزراعية العملاقة مثل توشكى وشرق العوينات.

ففى الوقت الذى تتجه فيه الدولة – منذ منتصف القرن العشرين – إلى استصلاح الأراضى الجديدة وزراعة الصحراء، وإلى بناء مجتمعات عمرانية جديدة فى الصحراء فى الربع الأخير من ذلك القرن، كانت المدن والقرى تتمدد على حساب الأراضى الزراعية السوداء فائقة الخصوبة، حيث توضح الإحصاءات أن بلادنا فقدت أكثر من مليون فدان من أجود الأراضى الزراعية المنتجة فى البناء وشق الطرق وإقامة المنشآت العامة، بالإضافة إلى نحو ٦٠٠ ألف فدان من الأراضى الخصبة تم تجريفها لإنتاج الطوب الأحمر.

فعلى سبيل المثال، تم استصلاح ٦٢٥ ألف فدان خلال الفترة من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٨٨، بمتوسط ٣٠ ألف فدان سنويًا، وهذه مساحة ضئيلة جدًا لم تتناسب مع زيادة عدد السكان فى نفس هذه الفترة

الزمنية، والتى تقدر بأكثر من ٢٠ مليون نسمة. وفى هذه الفترة فقدت مصر مساحة من الأراضى الزراعية نتيجة للتوسع العمرانى تفوق مساحة الأراضى المستصلحة، مع فارق جودة الأراضى حديثة الاستصلاح عن تلك الأراضى الخصبة المفقودة فى البناء.

وفى إحصائية أخرى للزيادة السكانية، ارتفع عدد السكان خلال الفترة من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٩٠ من نحو ٢٦ مليون نسمة إلى حوالى ٥٨ مليون نسمة، فى حين استمرت المساحة المنزرعة حول السبعة ملايين فدان، الأمر الذى أدى إلى انخفاض نصيب الفرد من المساحة المحصولية من نحو ٠,٤٥ فدان إلى حوالى ٠,٢٢ فدان، وكذلك الحال انخفض متوسط نصيب الفرد من المساحة المنزرعة من ٠,٢٥ فدان إلى حوالى ٠,١٢ فدان، مما نتج عنه آثار سلبية على معدل نمو الإنتاج وعدم ملاحقته لمعدل نمو السكان ومعدل زيادة الاستهلاك معًا، ونشوء فجوة غذائية شديدة لم تكن قائمة حتى منتصف القرن العشرين، مما سبب متاعب وصعوبات لا حصر لها للمواطن وللدولة على حد سواء.

ويعنى استمرار زيادة السكان بهذه الصورة الرهيبة مع الثبات النسبى لمساحة الأراضى الزراعية انخفاض نصيب الفرد منها، فإذا كان لكل إنسان مصرى فى العصر الفرعونى نحو فدان ونصف مخصصين لإطعامه وكسائه وزيادة، فإن المتاح لنا فى المستقبل القريب من إنتاجنا القومى قد لا يكفى لسد رمقه.

وإذا نظرنا إلى المتوسط العالمى لنصيب الفرد من الأراضى المنزرعة نجد أنه ٠,٦٣ فدان، بينما هناك دول عربية يزداد فيها نصيب المواطن فيها

من الأراضى الزراعية عن ذلك المتوسط العالمى، ففى سوريا يصل نصيب الفرد إلى ١,٠٧ فدان، والسودان ١,١٩ فدان، وتونس ١,٣٩ فدان، بينما يقفز هذا الرقم فى ليبيا إلى نحو ١٠,٨ من الأفدنة.

ولقد أدى زيادة السكان الرهيبة خلال النصف الثانى من القرن العشرين إلى وجود قاعدة عريضة من الهرم السكانى فى مصر من الشباب دون الخمسة عشر عامًا عمرًا، وهى فئة مستهلكة وغير قادرة على الإنتاج، كما أن نسبة السكان المشاركة فى قوة العمل تقل عن ٣٠٪ من جملتهم، وهى نسبة منخفضة جدًا لزيادة عدد المتعطلين عن العمل، بينما تصل نسبة العاملين فى الدول المتقدمة إلى نحو نصف عدد السكان.

وبالمقارنة بما كانت عليه مصر خلال العصر الفرعونى، فإن السواد الأعظم من البشر كانوا من ساكنى الريف، الذين يعملون فى الإنتاج الزراعى سواء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، واستمر ذلك لفترات طويلة. فلما ساء وضع الفلاح فى قريته، وانخفض مستوى معيشته، وتدهورت أحواله، هانت عليه أرضه، وترك مهنة الزراعة، وهجر الريف إلى الحضر باحثًا عن عمل آخر يتكسب منه، وترك القرية والأرض الزراعية ينعيا حظهما السيئ، الذى ازداد سوءًا مع مرور الوقت.

فلقد استمرت الزراعة مزدهرة فى الوقت الذى كان فيه الفلاح مستقرًا داخل قريته، متمسكًا بأرضه، قانعًا بمهنة أجداده القدماء، وهكذا كان الحال حتى بداية القرن العشرين، حيث كان نحو ٧٥٪ من سكان مصر من أهل الريف العاملين فى الإنتاج الزراعى، بينما الآن - ونحن فى

مستهل القرن الواحد والعشرين - فإن نصف السكان فقط يعملون في المجال الزراعي، تحت ظروف ليست مثالية.

وعلى الرغم من الهجرة المستمرة من ساكني الريف إلى المدن ، فإن بلادنا هي أكثر دول العالم كثافة في العمالة الزراعية لوحدة الأراضي المنزرعة، فعلى سبيل المثال متوسط ما يزرعه الفلاح المصري من الأراضي الزراعية سنويًا يبلغ نحو نصف فدان، في الوقت الذي يزرع نظيره في العراق خمسة أفدنة، وفي الجزائر ٥٤ فدانًا، ويقفز هذا الرقم إلى ١٢٢ فدان يزرعهم الفلاح الواحد في أستراليا سنويًا.

وحتى مطلع القرن العشرين كانت القرية المصرية منتجة لكافة المحاصيل الزراعية - خاصة القمح - بما يكفيها ويكفي سائر مدن مصر، واستمر الحال كذلك حتى منتصف القرن العشرين، فظلت القرى مكتفية ذاتيًا، وبدأ التحول للاستيراد لتغطية احتياجات المدن.

وفي عام ١٩٥٤ استوردت مصر ٦١٨ ألف طن قمح لتغطية استهلاكها، زاد بعد ذلك في الفترة من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٥٩ إلى نحو ألف طن قمح سنويًا، ثم قفز حجم الاستيراد إلى ٢ مليون طن سنويًا خلال الفترة من عام ١٩٧٠ - ١٩٧٤، وإلى ٥ مليون طن عام ١٩٨٠، بينما كان الإنتاج المحلي من القمح في نفس العام حوالي ١,٨ مليون طن، وبذلك دخلت مصر في دائرة كبار مستوردي القمح، وأصبحت القرية المصرية مستهلكة للقمح بعد أن كانت منتجة له.

ويدل ذلك على أن الاكتفاء الذاتي من القمح في مصر استمر قرونًا طويلة، ولم تظهر مشكلة الفجوة الغذائية، أو ما أطلق عليه بعد ذلك اسم

(مشكلة الأمن الغذائى القومى) إلا بعدما فشلنا فى تغطية احتياجاتنا القومية من القمح، وزاد استيرادنا منه، حتى وصلت نسبة الاكتفاء الذاتى من القمح عام ١٩٨٧ إلى ٢٢٪، وأصبح كل خمسة أرغفة نأكلها، ننتج منها رغيفًا واحدًا، والباقى من إنتاج فلاح أجنبى !

ولكن ما هى الأسباب التى أدت إلى ذلك ؟

قد يبدو لنا أن المشكلة تكمن - فقط - فى تلك الزيادة السكانية الرهيبة التى تزداد عامًا بعد عام بمعدل ١,٥ مليون نسمة سنويًا، مع ثبات المساحة المنزرعة رغمًا عن المحاولات الجادة لزيادة هذه المساحة سواء أفقيًا، أو رأسيًا عن طريق زيادة غلة الفدان. إلا أن هناك أسبابًا أخرى زادت من تفاقم هذه المشكلة حتى وصلت إلى ما نحن فيه الآن.

فعلى سبيل المثال تفتت المزارع إلى حيازات زراعية صغيرة، وما زالت بعض الأساليب الزراعية بدائية وبعيدة كل البعد عن الميكنة الزراعية الحديثة. وهناك مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية تتم خدمتها عن طريق مجهود الإنسان والماشية، تمامًا بنفس الأسلوب الذى كان يتبعه الفلاح المصرى القديم، مما ترتب عليه بطء أداء الخدمات الزراعية وعدم إتقانها، مع زيادة تكلفة الإنتاج وانخفاض إنتاجية الفدان.

وهناك نقص حاد فى الآلات الزراعية اللازمة، مثل الجرارات وآلات الحصاد والدراس، وآلات تطهير الترع والمصارف. كما أن الدورة الزراعية متزاحمة، تتنافس فيها محاصيل غذاء الإنسان - مثل القمح - مع

محاصيل العلف اللازمة لتربية الماشية، نظرًا لانعدام المراعى الطبيعية التى كانت منتشرة فى مصر خلال العصر الفرعونى السعيد.

كما ارتفع مستوى الماء الأرضى فى الأراضى الزراعية نظرًا لسوء الصرف، وزادت ملوحة الأراضى الجديدة، وتدهورت خصوبة الأراضى الزراعية خاصة بعد غياب طمى النيل الذى كان يحمله ماء الفيضان، وحجز الطمى خلف جسم السد العالى وترسب حتى كاد يسبب مشاكل أخرى أمكن حلها مؤخرًا.

ويقابل مشكلة زيادة مساحة الأراضى المراد استصلاحها قلة الموارد المائية المتاحة، فعملت الدولة على ترشيد استهلاك مياه الرى باتباع وسائل الرى الحديثة مثل الرى بالرش وبالتنقيط، إلا أن إجمالى مساحة الأراضى الزراعية التى تتبع هذا الأسلوب الحديث لا يتجاوز ٥٪ من إجمالى المساحات المنزرعة.

كل ذلك أدى إلى تفاقم الفجوة الغذائية، وكان هناك قصور فى إنتاج الحاصلات الزراعية، لذلك كان يجب على الدولة مواجهة المشكلة، وهى عملية صعبة وبطيئة النتائج، وتحتاج إلى استراتيجية شاملة للتنمية تعتمد على تركيز الجهود فى جميع مجالات النشاط الاقتصادى والاجتماعى.

إن قضية توفير الطعام لكل فم، والعمل لكل يد هى الشغل الشاغل للدولة ونحن على أعتاب القرن الجديد، حيث أن هذه القضية ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية وإنسانية، فإنتاج السلع الغذائية يجب أن يتمشى معه رفع دخول المواطنين وتوفير العمل للمتعطلين منهم، بحيث يتوفر

للمواطن المال اللازم لشراء ما يحتاج إليه من طعام، فيتحقق للمواطن أمنه الغذائي.

وعلى الرغم من المحاولات الجادة التي تبذلها الدولة لزيادة مساحة الأراضي الزراعية، وزيادة إنتاجية المحاصيل المختلفة، إلا أننا ما زلنا نواجه فجوة غذائية بالغة الاتساع، حيث ما زال إنتاجنا الزراعي لا يكفي سوى أقل من نصف احتياجات المواطنين، الأمر الذي يترتب عليه استيراد كميات كبيرة من المحاصيل الغذائية.

ومع زيادة الواردات من السلع الغذائية، وتناقص الصادرات، وارتفاع الاستهلاك المحلي من الغذاء، يقفز قيمة الدعم الحكومي للسلع الغذائية سنويًا إلى مبالغ باهظة، تتحملها الدولة للموازنة بين دخول الأفراد، وأسعار ما يشترونه من غذاء مستورد.

ويلقي هذا الدعم الحكومي أعباءً مالية كبيرة على الموارد الاستثمارية والمالية للدولة، ويؤثر تأثيرًا مباشرًا على برامج التنمية الاقتصادية، واستمرار ذلك قد يقضي على أي أمل في التقدم.

إننا نحتاج إلى روح الفلاح المصري القديم التي تحدت الصعاب، واقتحمت مشكلة زراعة الأرض، نحتاج إلى عزيمة وإصرار أجدادنا القدماء، وابتكاراتهم واختراعاتهم ونحن على مشارف الألفية السابعة في عصر العلم والتقنية الحديثة وعلوم الفضاء وتقنية الاستشعار عن بعد.

فإذا ما تضافرت الهمم، وصدقت النوايا، وأخذنا بناصية العلم، عدنا مرة أخرى إلى سابق عهدنا للحضارة المصرية الرائدة، وإلى وفرة الإنتاج، ورخاء الوطن والمواطن، والعود أحمد.

المراجع

١ - أدولف إرمان (١٩٩٧) : ديانة مصر القديمة - ترجمة: د.عبد المنعم أبو بكر و د. محمد أنور شكرى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مهرجان القراءة للجميع.

٢ - ببير مونتيه (١٩٩٧) : الحياة اليومية فى مصر - ترجمة عزيز مرقص منصور - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مهرجان القراءة للجميع.

٣ - جورج بوزنر ، سيرج سونرون، جان يويوت، أ.أ.س. ادواردز، ف.ل. ليونيه، جان دوريس (١٩٩٦): معجم الحضارة المصرية القديمة - ترجمة: أمين سلامة و د. سيد توفيق. الهيئة المصرية العامة للكتاب - مهرجان القراءة للجميع.

٤ - جون ويلسون (١٩٥٤): الحضارة المصرية . ترجمة: د. أحمد فخرى. مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

٥ - جيمس هنرى برستيد (١٩٥٦) : فجر الضمير . ترجمة: د. سليم حسن - مكتبة مصر - القاهرة.

٦ - حسن عبد الرحمن خطاب (١٩٨٥): الثورة النباتية فى مصر القديمة. الإدارة العامة للثقافة الزراعية - القاهرة.

٧ – حسن عبد الرحمن خطاب (١٩٩٣): الآفات الزراعية ووقاية النبات في مصر القديمة. نشرة فنية رقم ٩ (١٩٩٣)، الإدارة العامة للثقافة الزراعية – القاهرة.
٨ – سعد هجرس (١٩٩٦) : الزراعة المصرية. الماضي – الحاضر – المستقبل. المكتبة الأكاديمية.
٩ – سليم حسن (١٩٤٠): مصر القديمة: الجزء الأول – في عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر الإهناسي – مطبعة الكوثر – القاهرة.
١٠ – سليم حسن (١٩٤٨) : مصر القديمة: الجزء الثاني – في مدينة مصر وثقافتها في الدولة القديمة والعهد الإهناسي – مطبعة الكوثر – القاهرة.
١١ – سليم حسن (١٩٤٨) : مصر القديمة : الجزء الرابع – عهد الهكسوس وتأسيس الإمبراطورية – مطبعة دار الكتب المصرية.
١٢ – فودن وفلتشر (١٩١٠) : كتاب الزراعة المصرية – الجزء الأول. ترجمة: عبد الحميد فتحي والفونس جريس ومحمود توفيق – قلم نشر مطبوعات الحكومة – وزارة الزراعة – قسم التعليم الزراعي.
١٣ – محمد صابر (١٩٦٠): مصر تحت ظلال الفراعنة – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة.
١٤ – نعمات أحمد فؤاد (١٩٨٩): شخصية مصر. الطبعة الخامسة – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كتب للمؤلف

أولاً : كتب علمية :

١ – موسوعة عيش الغراب العلمية (١٩٩٥) – الدار العربية للنشر والتوزيع

الجزء الأول : عيش الغراب البرى والكمأة

الجزء الثانى : زراعة عيش الغراب

الجزء الثالث : طهى عيش الغراب وقيمته الغذائية والطبية

الجزء الرابع : التدريبات العملية على زراعة الأنواع التجارية

٢ – عالم الفطريات (١٩٩٨) – الدار العربية للنشر والتوزيع.

٣ – عيش الغراب وعالمه الساحر (١٩٩٨) – دار المعارف.

٤ – الفطريات الصناعية (١٩٩٩) – الدار العربية للنشر والتوزيع.

٥ – الفطريات فى حياتنا (١٩٩٩) – كتاب المعارف العلمى – دار المعارف.

٦ – قاموس المصطلحات الفطرية (٢٠٠٠) – المكتبة الأكاديمية.

٧ – الجذور الفطرية – الميكوريزا – (تحت الطبع) – الدار العربية للنشر والتوزيع.

ثانيا : كتب تبسيط العلوم :

١ – سلسلة حكايات علمية – دار المعارف (١٩٩٨ – ٢٠٠٠)

المجهر ورؤية العالم الخفى – عودة أبى قردان والعودة إلى الطبيعة – حراس البيئة – النباتات المتوحشة – حشرات مهنتها الزراعة – بستان عيش الغراب – الشمس تدير الآلات – هل بنى الفراعنة أهرامات المكسيك؟.

٢ – سلسلة ماذا تعلم عن ؟ – دار المعارف (٢٠٠٠)

النباتات الذكية – لغة الحيوانات – النباتات المريضة – طيور لا تطير.

نبذة عن المؤلف

الأستاذ الدكتور محمد على أحمد

أستاذ أمراض النبات – كلية الزراعة – جامعة عين شمس.

- بكالوريوس فى العلوم الزراعية – كلية الزراعة – جامعة عين شمس عام ١٩٧٠ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف.
- ماجستير فى أمراض النبات – كلية الزراعة جامعة عين شمس عام ١٩٧٤.
- دكتوراه الفلسفة فى العلوم الزراعية من معهد أمراض ووقاية النبات – جامعة جورج أوجست – جوتنجن – ألمانيا الغربية عام ١٩٨٣.
- عضو جميعة أمراض النبات المصرية والجمعية الألمانية لأمراض النبات.
- عضو لجنة إعداد المناهج الدراسية المطورة لمادة البيولوجى للتعليم الزراعى بوزارة التربية والتعليم.
- أستاذ زائر بمعهد بحوث الفطريات التطبيقية – كريفلد – ألمانيا عام ١٩٩٥.

- للمؤلف عديد من البحوث فى مجال أمراض النبات، وفى الاستخدامات التطبيقية للفطريات، مثل المكافحة الحيوية للحشرات، والجذور الفطرية (الميكوريزا)، ودراسة الأنواع البرية لفطريات عيش الغراب، وزراعة الأنواع التجارية.
- أشرف على عديد من الرسائل العلمية لدرجتى الماجستير والدكتوراه فى مجالى أمراض النبات والاستخدامات التطبيقية للفطريات.
- أسس أول وحدة بحثية فى الوطن العربى فى مجال أبحاث وإنتاج عيش الغراب بكلية الزراعة جامعة عين شمس عام ١٩٨٨، وما زال يشرف عليها حتى الآن.
- حصل على جائزة أفريقيا السنوية الرابعة عشر لعام ١٩٩٣ من الهيئة العلمية الأسبانية للنشر نظرًا للدور الرائد فى تدوير المخلفات وحماية البيئة من التلوث عن طريق الدعوة لزراعة عيش الغراب.
- له عديد من المؤلفات العلمية والكتب الخاصة بتبسيط العلوم.

فهرس

العدد القادم

الإنسان والبيئة والتنمية

د. محمد عبد الفتاح القصاص

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

– داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً

– الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًّا

– الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًّا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء – القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١٠٩ كورنيش النيل – ماسبيرو – القاهرة.

رقم الإيداع	٢٠٠٠/٨٩٢٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6018-5

١/٢٠٠٠/١١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)